الطفلة التي لا تنمو أبدًا

بيرل باك

- Author : Birl Back
- Title: The Child Who never Grew
- Translated by: Hatem Abdel-Sahb
- Afaq's first edition: 2018
- Cover Design by: Amr El Kafrawy
- Publishing Consultant: Sawsan Bashir
- General Supervisor : Tarek Hashim

- المؤلف: بيرل باك
- العنوان : الطفلة التي لا تنمو أبدًا
- ترجمة : حاتم عبد الصاحب
- طبعة آفاق الأولى 2018
- تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
- مستشار النشر: سوسن بشير
- الإشراف العام: طارق هاشم

رقم الإيداع:
٢٠١٧ / ٩٧٥٤
الترقيم الدولي : ISBN
978 - 977-765 - 102 - 8

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه. أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No Part of this book may be reproduced، stored in a retrieval system، or transmitted in any form، or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

بيرل باك

الطفلة التي لا تنمو أبدًا

رواية

ترجمة

الدكتور/ حاتم عبد الصاحب

تقديم

الدكتور/ سعيد عبده

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

باك، بيرل.

الطفلة التي لا تنمو أبدًا - ترجمة: دكتور/ حاتم عبد الصاحب بيرل باك

ط1 القاهرة - دار آفاق للنشر والتوزيع - 2018

120 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 9754 / 2017

الترقيم الدولي 8 - 102 - 765 - 977 - 978

1 - الأدباء

2 - باك، بيرل

مقدمة

لن يجد قارئ هذه القصة فيها عددًا كبيرًا من الأشخاص الذين تَعَوَّد أن يلقاهم على صفحات القصص والروايات. ولن يشهد كثيرًا من ذلك الصراع الذي تعود أن يشهده بين أبطال القصص وبين الأحداث والمقادير. ولكنه مع ذلك سيعثر فيها على نبع جيَّاش بالعاطفة الإنسانية، والبِرّ والرحمة والإصلاح الاجتماعي، ينبثق من قلب أم منكوبة، وقلم كاتبة موهوبة، جمعتهما محنة من محن الحياة في شخص امرأة واحدة، هي بيرل باك مؤلفة هذا الكتاب.

إن بيرل باك مؤلفة «الأرض الطيبة» وعشرات سواها من الروايات العالمية، تقمصت في هذه الرواية

جسد محامية فذة، وتصدت للدفاع عن قضية طفلة من لحمها ودمها تمثل مئات الألوف من الأطفال الذين يولدون بلهاء أو يصابون بالبله والقصور العقلي وهم في طور الطفولة، ويبلغون مبلغ الرجال والنساء أجسادًا، وتظل عقولهم كما كانت عقول أطفال، فلم تبسط قضية هؤلاء الأطفال الأبرياء وحسب، ولا روت تعاستهم المحزنة وحسب، ولكنها كذلك شرحت لنا بمنطق يقطر أسى، ومرارة، وحنانًا، وقوة، ما هو الشيء الذي نستطيع نحن العميان من آباء هؤلاء الأطفال التعساء، ونحن الغافلين من رجال الصحة والاجتماع، ما هو الشيء أو الأشياء التي يتحتم علينا أن نقوم بها؛ لتوقي ما يمكن توقيه من أسباب البله المبكر، ثم علاج ما لا يمكن توقيه من حالات البله في الأطفال، إلى الحد الذي يوفر لهم قسطًا من السعادة التي هي من حقهم، كما هي من حق سائر الأطفال، ويساعد على إنقاذهم من براثن الإهمال والقسوة والضلال المؤلم في تيه الحياة، ويحمي البيت والمدرسة والمجتمع من الأعباء الفادحة والظلال القاتمة، التي لا بد أن يلقيها عليهم وجود طفل من هؤلاء الأطفال.

إن وجود طفل من هؤلاء الأطفال البلهاء في بيت هو- على ما تقول المؤلفة بحق- امتحان لفضيلة الصبر في الإنسان. فالأم لا تستطيع أن تبتسم عندما تنظر إلى ابنها هذا، والأب يشيح عنه بوجهه كلما رآه، والمدرسة ترتبك من وجوده، وإذا مات الوالدان أو عجزا عن العناية بالطفل، أو نبذه المعلمون، اندفع إلى العالم بغير معين، يحدث فيه الخراب والاضطراب والتدمير، عن طريق صيرورته آلة في يد أشخاص آخرين، أشد منه مهارة وذكاء، ثم تنتهي به الحال إلى التردي في مهاوي الجريمة، لا يفقه ما يعمل، وهو في الواقع من تبعاتها بريء.

ولدت بيرل باك في ٢٦ من يونية سنة ١٨٩٢ بولاية فرجينيا، إحدى الولايات المتحدة الأمريكية، من أبوين أمريكيين، مبشرين، هاجرا بها وبإخوتها، وهي طفلة، إلى الصين، ففقدا هناك كل أولادهما عدا اثنين، كانت أحدهما بيرل.

وقضت بيرل أولى مراحلها التعليمية في شنغهاي، وفي السابعة عشرة من عمرها رحلت إلى أوروبا وإنجلترا، ثم عادت إلى موطنها الأول في أمريكا حيث

تلقت تعليمها الجامعي هناك. ثم تزوجت من مبشر أمريكي يدعى الدكتور جون لوسنج باك، ورحلت معه إلى مدينة بشمالي الصين عاشت معه فيها خمس سنوات، وانتقلت معه إلى نانكنج، فاشتغلت بجامعتها مدرسة للغة الإنجليزية، وأنجبت خلال إقامتها هذه بالصين طفلتين، كانت إحداهما هي الطفلة التي تدور حول مأساتها قصة الطفلة التي لا تنمو أبدًا. كما أنها كتبت في هذه الفترة قصتيها المعروفتين: «ريح الشرق وريح الغرب» و«الأرض الطيبة» التي نالت بها جائزة بولتزر للآداب.

ونزحت إلى أمريكا سنة ١٩٣١ حيث نالت طلاقًا من زوجها، وتزوجت مرة ثانية من ريتشارد وولسن مدير شركة النشر التي طبعت ونشرت لها هذا الكتاب، وعاشت معه، ومع طفلتيها من زوجها الأول الذي احتفظت باسمه، ومع أربعة أطفال متبنين: ثلاثة صبيان وفتاة.

إن بيرل باك امرأة طويلة، أنيقة، نصف شقراء، حرة الرأي والعقيدة والتفكير، ظهرت خلال الحرب العالمية الثانية كمحامية متحمسة لقضية المساواة

الاقتصادية والسياسية بين البيض والسود في شتى بقاع العالم.

وتقول بيرل باك عن نفسها:

«لقد علمتني أمي جمال الكلمة».

ثم:

«إنني لا أستطيع أن أتذوق السعادة إلا بكتابة الروايات سواء أقرئت أم لم تقرأ، فإني واحدة من أولئك البشر التعساء الذين لا يشعرون أنهم يؤدون عملًا، إلا إذا أغرقوا في الكتابة، أو التفكير فيما كتبوا، أو الاستعداد لكتابة شيء جديد».

ومن أجل ذلك لم يكن يمر عليها عام منذ سنة ١٩٢٩، يوم أصدرت روايتها الأولى «ريح الشرق وريح الغرب» دون أن تطلع على العالم بكتاب.

ففي سنة ١٩٣١	أصدرت «الأرض الطيبة» و«الثائر الصغير».
وفي ١٩٣٢	أصدرت «الأبناء».
وفي ١٩٣٣	«الزوجة الأولى وأقاصيص أخرى».

وفي ١٩٣٤ «الأم».

وفي ١٩٣٥ «البيت الممزق».

وفي ١٩٣٦ «المنفى» و«الملاك المحارب» وقد جمعتهما سنة ١٩٣٧ في كتاب واحد سمته «الروح والجسد».

وفي ١٩٣٧ «الوطني المتحمس».

وفي ١٩٣٨ «هذا القلب المتكبر».

وفي ١٩٣٩ «القصة الصينية» (ونالت عليها جائزة نوبل للآداب).

وفي ١٩٤١ «اليوم وإلى الأبد» ثم «حول الرجال والنساء».

وفي ١٩٤٢ «الأطفال الصينيون في بيت الجيران» ثم «الحية العملاقة» ثم «آسيا والوحدة الأمريكية».

وفي ١٩٤٣ «الوغد» ثم «ما الذي تعنيه أمريكا لي».

وفي ١٩٤٤ «السمكة العملاقة».

وفي ١٩٤٥	«يولان الصبي الصيني الطيار» و«قل للناس» و«حديث عن روسيا».
وفي ١٩٤٦	«رواق النساء».
وفي ١٩٤٧	«البعيد والقريب- حكايات من الصين واليابان وأمريكا» ثم «كلام عن الألمان».
وفي ١٩٤٨	«الموجة الطاغية».
وفي ١٩٤٩	«كينفولك».
وفي ١٩٥٠	«ذات صباح صاف» و«الطفلة التي لا تنمو أبدًا».
وفي ١٩٥١	«منطق أمريكي» و«رجال الله».
وفي ١٩٥٢	«الزهرة المخبوءة».
وفي ١٩٥٣	«الرجل الذي غير وجه الصين».
وفي ١٩٥٤	«عوالمي المتعددة».

هذا إلى تأسيسها جماعة «التفاهم بين البشر» سنة ١٩٤١، ومؤسسة رعاية الأطفال المولودين في أمريكا من آباء آسيويين سنة ١٩٤٩، ثم انتخابها عضوًا في أكاديمية الآداب والفنون الأمريكية سنة ١٩٥١، وهي

تتكون من خمسين عضوًا تستمر عضويتهم ما امتدت بهم الحياة، وبيرل باك هي إحدى عضوين اثنين من النساء بين هؤلاء الأعضاء الخمسين.

بهذه القدرة الأدبية الفذّة، وبهذه الروح الإنسانية السمحة، اتخذت بيرل باك من مأساتها الخاصة في طفلتها، وسيلة للدفاع عن قضية مئات الألوف من الأطفال، ضحايا القصور العقلي المستديم، وهي مشكلة من أكبر المشاكل الاجتماعية والتعليمية التي تواجه حضارة القرن العشرين، وتتحدى في كثير من بقاع العالم طاقات المصلحين، وإن كانت الدلائل تدل على أنها تستسلم في كثير من قواعدها لجهود الصحة الاجتماعية، والصحة العقلية، الآخذتين في النماء والازدهار. وأعتقد أن نجاح بيرل باك في دفاعها عن هذه القضية، لا يقل عن نجاح «هيلين كيلر» التي كانت منذ طفولتها صماء بكماء عمياء، في الدفاع عن ركن من أركان هذه القضية، يوم كتبت سيرة حياتها، وكيف شقت طريقها في هذه الحياة.

إن هؤلاء الأطفال التعساء تشترك في آفاتهم المنكودة عدة عوامل، منها عامل الوراثة الذي برأته

المؤلفة بحق من أن يكون العامل الأول والأخير في إحداث هذا القصور العقلي المستديم، ثم عوامل البيئة المستمدة من آفات الحمل التي تصيب الجنين في رحم أمه، تارة من سوء تغذية الأم، وطورًا من إصابتها بتسمم الحمل، وحينًا من وقوعها فريسة للأمراض المعدية والحصبة الألمانية منها بنوع خاص، ثم عوامل الأذى الذي يصيب الجنين من التدخل الجراحي أو التخدير الطويل أثناء الميلاد، ثم من الضر الذي قد يمس مخ الطفل من سقوطه على رأسه نتيجة للإهمال، أو الإصابة بالحميات المخية الطارئة عليه في طور الطفولة أو الصبا.

إن معظم هذه العوامل يمكن توقيه، وما لا يتوقى من نتائجها، يمكن بالكشف المبكر أن يكفكف الكثير من أذاه، وما يتبقى من هذه النتائج كآفات عقلية مستعصية، يمكن أن يؤهل أصحابه لقسط كبير من السعادة والعمل المثمر في المعاهد التي أفاضت المؤلفة في وصف ما ينبغي أن يهيأ لها من مقومات النجاح.

إن إيواء هؤلاء الأطفال، في مثل هذه المعاهد،

ينقذ أسرهم التي تعجز عادة عن مواجهة العناية المعقدة بأمرهم، ويتيح لها أن تخوض طريقها في الحياة بلا عراقيل، كما يتيح لهؤلاء الأطفال أنفسهم فرصة للتأهل للحياة لا يمكن أن تتهيأ لهم تحت رعاية غير المتخصصين، ولو كانوا آباء أو أمهات، فإن عناية الأم والأب بطفل من هؤلاء تحت إشراف حازم قد تحل مشكلة طفل متوسط البلاهة، ولكنها لن تغني البتة في حالة البله الكامل المستديم. ولقد استطاعت الحياة المنظمة في أمثال هذه المعاهد أن تمكن فعلًا مثل هذا الطفل من قسط طيب من السعادة، والحياة المثمرة في جو ممتلئ بالعطف والحنان، خال من المسئوليات التي لا تقوى على تحملها هذه الكواهل الضعاف.

إن مجتمعنا العربي يعاني، كأي مجتمع آخر، مشكلة القصور العقلي بشتى طبقاته ودرجاته في الطفولة، وليس أولئك المعاتيه والبلهاء الذين يتخذ منهم أطفال القرية والمدينة هزوًا ولعبًا، ويرمونهم بالحجارة، إلا وجهًا واحدًا من وجوه هذه المشكلة وجزءًا صغيرًا من النتاج الذي لا بد منه لإهمال قصورهم العقلي في الصغر، وتركهم يكبرون أجسادًا

بلا عقول.

وباسم هؤلاء، وباسم الآلاف من ضحايا القصور العقلي في المدرسة والمجتمع بصفة عامة، أتمنى لو استطاع هذا الكتاب أن ينفذ إلى أكبر عدد من الضمائر، في وزارات الصحة والشئون الاجتماعية، والجامعات، لعلنا نستطيع أن ننظر بأمل إلى صبح ذلك اليوم الذي نسهم فيه إسهامًا إيجابيًّا فعالًا في مثل الجهود الإنسانية التي شرحت بعضها المؤلفة، وأضفت عليها من قدرتها القصصية، وعاطفتها الإنسانية، ما يجعلها سهلة المدخل إلى الضمائر والقلوب.

«إن الأمل- على ما تقول المؤلفة- يجتلب الراحة والطمأنينة. إن ما هو كائن في هذا الصدد يجب ألا يستمر كما هو إلى الأبد. أجل إنه لاهتمام متأخر جدًّا بالأمر من ناحية بعض أطفالنا، غير أن مصيبة هؤلاء الأطفال إذا استطاعت أن تجعل الناس يدركون أن أكثر هذه المأساة هو حدث غير ضروري فإن حيوات هؤلاء الأطفال، على ما هي عليه من خيبة، لن تكون خلوًا من المعنى».

سعيد عبده

الفصل الأول

كنت أفكر منذ زمن طويل في أن أقوم بكتابة هذه القصة. إنها قصة واقعية، وهذا ما يجعلها صعبة السرد. ولكن أسبابًا متعددة قد ساعدتني هذا الصباح، بعد تجوالي ساعة أو نحو الساعة فيما بين الغابات الشتوية، على أن أصل في النهاية إلى أن الوقت قد حان لسرد هذه القصة- ومن هذه الأسباب تلك الرسائل الكثيرة التي تسلمتها على مر السنين من آباء ذوي أطفال كطفلتي هذه، فقد كتبوا يسألونني عما يجب أن يفعلوه في هذا الشأن. وكنت وأنا أجيب عن تلك الرسائل أستطيع أن أخبرهم بما فعلته أنا نفسي. إن هؤلاء الآباء كانوا يسألونني عن أمرين: أولهما هو ما الذي ينبغي أن يقوموا به نحو أطفالهم؟ وثانيهما هو كيف يستطيعون أن يتحملوا الأسى الذي يستتبعه وجود طفل كهذا في العائلة؟

إنني أستطيع أن أجيب عن السؤال الأول، ولكن السؤال الثاني سؤال صعب حقًّا، ذلك أن تحمل الأسى الذي لا مناص منه أمر ينبغي أن يتعلمه المرء وحده. يضاف إلى هذا أنه ليس كافيًا في هذا الصدد أن يتحمل الإنسان وحسب، ذلك أن هذا التحمل قد يكون جذرًا مريرًا في حياة الإنسان حاملًا ثمرًا سامًّا كئيبًا- محطمًا حيوات أخرى. إن التحمل في الواقع هو البداية وحسب، إذ يجب أن يكون هناك قبول وإدراك بأن الأسى أن تقبل قبولًا تامًّا فإنه سيؤتي ثماره، ذلك أن في الأسى مرهمًا حيويًّا، يمكن تحويله إلى حكمة إن هي قصرت في اجتلاب البهجة والفرح فلا غرو تجلب السعادة.

أما السبب الأخير لسرد هذه القصة فهو رغبتي في أن تكون حياة طفلتي ذات فائدة لجيلها. إن ابنتي هذه مخلوقة لم تنم نموًّا عقليًّا يتعدى طفولتها المبكرة، ولذا فهي طفلة إلى الأبد، وإن كانت الآن كبيرة من حيث السنين حتى لتصلح أن تكون زوجة، وأن تكون ذات أطفال هم أحفادي الذين لن يوجدوا أبدًا.

إن الصرخة الأولى التي انبعثت من أعماق قلبي- عندما عرفت أنها لن تكون أبدًا إلا طفلة- هي الصرخة المعروفة على مر الزمن منذ القِدَم والتي نطلقها جميعًا عندما نواجه أسى محتومًا، ألا وهي: كيف يصح أن يحدث هذا الأمر لي؟ ولم أجد لهذا

السؤال من جواب، وما كان له من جواب. ولما أدركت في النهاية أنه لن يكون هناك جواب لهذا السؤال، اتخذ قراري صورة أن أجعل معنى لما لا معنى له. وهكذا أكون قد أعددت الجواب وإن كان جوابًا من صنعي أنا. لقد قررت أن طفلتي- التي كان واضحًا جليًّا أن مواهبها الطبيعية غير اعتيادية- يجب ألا تضيع سدى، وإن كانت تلك المواهب الطبيعية لم تجد لها تعبيرًا أبدًا. فإذا هي لم تتمكن من القيام بما كان يجب أن تقوم بتقديمه لجيلها عن طريق عبقريتها في الموسيقى، وإذا كان جسمها الصحي لم يكن يحمل ثمرًا أبدًا، وإذا كانت قواها الفتية لن تستغل استغلالًا خلّاقًا مبدعًا، فإن حقائق حالتها بالذات- أعني وجودها كما كانت وكما هي اليوم- يجب أن تكون ذات فائدة للناس، ذلك أن حياتها يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار من ناحية واحدة، إن لم تؤخذ بعين الاعتبار من الناحية الأخرى، إذ إن إدراك أن حياتها هذه لم تضع سدى قد يهون ما لم يكن من الممكن منعه أو شفاؤه.

إن هذا القرار لم يأتني عفو الخاطر، فقد انتهيت إليه بعد طول روية. ولكنني حين انتهيت إليه تمسكت به طيلة سنى حياتي. لقد هيأت لهذا القرار أن يعمل عمله بطرق هادئة بعيدًا عن أولئك الفضوليين ذوي العيون الباردة. أما اليوم فسأغفل أولئك الذين أخشاهم، وهم على كل حال قليلون جدًّا. ولكنني سأتذكر الكثيرين من ذوي العطف واللطف، أولئك الذين سيدركون

قصدي من سرد هذه القصة، أولئك الذين ينشدون المساعدة في تحقيق هذه البغية لأنها بغيتهم أيضًا.

تحركني دومًا عواطف الدهشة المقرونة بعرفان الجميل. فإلى جانب القلائل الفضوليين أو الناقدين بدناءة وخسة، والذين تسرهم أحزان الآخرين، يوجد ألوف من الخيرين. لقد أصبحت أعتقد أن القلب الإنساني الطبيعي مفطور على الخير، كما أنني لاحظت أن هذه الطيبة موجودة في كل ضروب الناس وأنها يمكن أن تنتشر، بل هي منتشرة فعلًا، بالرغم من تفشي المفاسد والشرور الأخرى. إن وجود هذا الخير الإنساني وحده هو الذي ييسر الكفاية من الأمل للعالم.

كنت أعجب أحيانًا، كلما مرت السنون، مما إذا كان الوقت الذي أشعر فيه بأن الغاية التي أنشدها لطفلتي وتنطوي على سرد قصتها سيحين. لقد فزعت من هذا ولا أزال أفزع منه، ومع هذا كله فإن الوقت قد حان، ذلك أن هناك نشاطًا في بلدنا حيث توجد حركة جديدة عظيمة لمساعدة الأطفال الذين يشبهون طفلتي. لقد ذهب الوقت الذي كان يمكن أن تساعد فيه، بالطبع، ولكن الوقت لم يمض بالنسبة إلى الكثير من الأطفال الصغار، وبالنسبة، ولا شك، إلى الآخرين الذين سيولدون من بعد. ذلك أننا قد بدأنا ندرك أهمية ومعنى الشخص المتخلف عقليًّا في مجتمعنا

الإنساني، فهناك واحد في كل مائة شخص تقريبًا متخلف، أو سيكون متخلفًا عقليًّا، وأغلب هؤلاء إنما كانوا متخلفين بتأثير أسباب غير موروثة. إن الزعم القديم القائل بـ «وجود شيء في العائلة» هو، في أغلب الأحيان، زعم ظالم.

إن المجموع الكلي للأطفال المتخلفين ليس كبيرًا بالنسبة إلى مجموع السكان، ومع هذا فإن هذا العدد كافٍ لأن يحدث اضطرابًا وإزعاجًا في كل مكان، إذ تكون البيوت غير سعيدة ويكون الوالدان مشدوهين موزعي الشعور كأنما أصيبا بمس من الجنون، وتكون غرف المدرسة مرتبكة من جرّاء وجود هؤلاء الأطفال الذين قد أصبحوا على ما هم عليه، لا لذنب جنوه أو خطأ ارتكبوه. فإذا مات الوالدان أو عجزا عن العناية بهؤلاء الأطفال، وإذا نبذهم المعلمون اندفع هؤلاء الأطفال إلى العالم دون معين محدثين فيه الخراب والتدمير والاضطراب أينما حلوا وحيثما ساروا. إن هؤلاء الأطفال يصبحون وسائل وأدوات لأولئك الذين هم أمهر منهم، إذ هم الأحداث المجرمون الذين لا رجاء في استصلاحهم، ذلك أنهم يسقطون في مهاوي الجريمة؛ لأنهم لا يفقهون ما يعملون. إن كل ما يقوم به هؤلاء الأطفال إنما يقومون به عن براءة، ذلك أنهم، من بين أطفال الله الكثيرين، أكثر الأطفال براءة.

إنه ليهمني بزوغ فجر فهم أفضل من ذي قبل لأمثال هؤلاء

الأطفال، ذلك أن الموقف العام تجاههم كان حتى الآن خاطئًا خطأً مرًّا، إذ إن الآباء والأمهات كانوا يشعرون بالخجل والخزي ويفقدون صوابهم عندما يكون عندهم طفل متخلف لا يستطيع أن يتعلم في المدرسة، وقد لا يتمكن في بعض الأحيان من أن يتعلم التكلم. إن مثل هذا الطفل كان يعتبر عورة يجب أن تُستر. وكان الجيران يتهامسون فيما بينهم: إن طفل فلان أو علان طفل غير سوي. إن هذه العائلة تتعلم أن تحاول الادعاء بأن «هاري» المسكين أو «سوزي» المسكينة خاملان وحسب. ومن ثم فهذا الشعور بالخجل الذي يعانيه هؤلاء الآباء والأمهات يعدي كل الأطفال، وهكذا ينشر الأسى وباءه وآفته. أما الطفل الصغير المسكين نفسه فهو يشعر بنقصه وإن لم يتمكن أن يدرك ذلك النقص. وهكذا يعيش هذا الطفل في ظلال محيط، فأمه لا تتمكن أن تبتسم عندما تنظر إليه، وأبوه يزيغ عنه النظر عندما يراه. وهذا بالرغم من حب الوالدين الرقيق له- ذلك أن من نبل القلب الإنساني أن يتمكن من رعاية المخلوق الضعيف الذي لا عون له رعاية عطف ولطف، إذ إن وجود مثل هذا الطفل امتحان لفضيلة الصبر في هذا القلب الإنساني، فإن الطفل يدرك ما فيه الكفاية ليعلم أن هناك شيئًا من سوء الطالع فيه. إن الظل القاتم لهذا الطفل يرتمي أمامه أينما حل وحيثما سار.

أما الآن فشكرًا لله وحمدًا، ذلك أن هذا الظل القاتم قد بدأ يتلاشى ويزول، حيث إن العقلاء من الرجال والنساء قد بدأوا

يرون أن من المألوف وحسب أن يقبل الشخص المتخلف عقليًّا على أنه جزء من الأسرة الإنسانية، وأن يعلم الأمور التي يمكنه أن يقوم بها، بحيث يصبح هذا الشخص سعيدًا بنفسه ومفيدًا للمجتمع. ولأجل أن يحقق هذا الغرض ينبغي أن يتقدم البحث الأولي في هذا المضمار تقدمًا لم يكن معروفًا من قبل أبدًا، إذ يجب أن نكشف بطريقة ما: لِمَ لا ينمو هذا العدد العديد من الناس نموًّا عقليًّا إلى الحد الذي رسمته كفاياتهم؟ إنه ليجب أن تكون هناك أسباب ممكنة العلاج، كما أن هناك بالتأكيد أسبابًا ممكنة المنع والدرء. ذلك أننا نعلم مثلًا، أن المرأة إذا أصيبت بالحصبة الألمانية خلال الأشهر الثلاثة الأولى من الحمل، فإن طفلها قد يولد ناقصًا أو مشوّهًا عقليًّا، ولكننا لا نعلم لم يحدث ذلك، وعلى هذا يجب أن نعلم لماذا يحدث هذا النقص العقلي على أثر هذه الإصابة.. إن الطفل الذي يشبه المغول قد يولد في أي عائلة. إن هذا الطفل المغولي في الواقع هو طفل لما يكمل تكوينه بعد، وهو عادة إما أن يكون الطفل الأول أو الأخير من بين أطفال العائلة. إن علينا أن نكشف، في هذا الصدد، الظروف والأحوال التي تعانيها الأم فتسبب نشأة أو تكوين مثل هذا الطفل. إذ ليس من الضروري أن يولد أطفال لن يبلغوا في نموهم تمام نفوسهم أبدًا. ولكن النوافذ قد فتحت أخيرًا على هذه الزاوية المظلمة من الحياة الإنسانية وأصبح النور يشرق على وجوه هؤلاء الأطفال

وفي قلوب آبائهم وأمهاتهم.

وعلى هذا فأنا إذ أسرد قصة طفلتي هذه، ربما قد شاركت بقسط قليل في انبثاق هذا النور الجديد. إن طفلتي لا تفقه ما تعمل- ولكني أنا- أمها، سأقوي ذلك لها وأقوم به بالنيابة عنها وباسمها، علّ الآخرين أمثالها يجتنون فوائد معرفة أتم وفهم أفضل مما نحن عليه الآن في هذا الشأن. وهنا لا بد لي أن أشير إلى أنه ليس من السهل عليَّ أن أسرد هذه القصة كلها سردًا دقيقًا، ولكن هذه القصة لن تكون ذات فائدة وجدوى، إذا هي سردت على غير هذا المنوال. إن من المحتمل أن تكون هناك طمأنينة وارتياح عندما تكمل هذه القصة؛ لأنها إنما تسرد من أجل غرض سام.

وهنا لا بد لي أن أعود إلى سنى المبكرة من شبابي النسوي- لا، بل يجب عليَّ أن أرجع إلى ما قبل ذلك، عندما كنت طفلة صغيرة لم أتجاوز السابعة من العمر، وكنت أعيش في الصين تعتريني يقظة الروح. فلقد كنت حتى ذلك الحين، على ما أظن، مخلوقة اعتيادية أنانية لا أفكر إلا في اللعب لا في شيء آخر غيره، ما عدا انتهاجي السبيل التي أهواها. وكان هناك قليل من الأطفال ألعب معهم وألهو، وكانت هناك امرأة أمريكية شابة مرحة جاورتنا إلى أمد قصير، فكانت من بين صديقاتي العزيزات. لقد كانت هذه الشابة متزوجة، ولقد أنجبت طفلة خلال الأشهر القليلة التي كانت

فيها جارة لنا.. لقد كانت هذه أول خبرة لي مع طفل أمريكي، كما كانت أول خبرتي بكل تلك العناية الرقيقة التي يتلقاها الطفل الأمريكي عادة.

فقد كان عليَّ أن أحضر، كل صباح، عملية استحمامها، كنت أصب الماء وأدفئ المنشفة، وأناول الأم «البدلات» الصغيرة واحدة بعد الأخرى. وكان يسمح لي وحدي، لبرهة صغيرة، أن أتولى تلك الطفلة الصغيرة ذات العينين الزرقاوين والشعر الجميل وهي عطرة بطيب رائحة الصابون والنظافة عندما كانت توضع بين ذراعي. وكان ذلك أعظم ما في اليوم عندي. وأنا لا أزال أتذكر حتى الآن، وبعد أن حملت بين ذراعي كثيرًا من الأطفال من مختلف الذريات، البهجة التي كنت أتمتع بها حين كنت أحمل بين ذراعي تلك الطفلة الصغيرة الأولى من حياتي. لقد كان من الممكن أن أحزن حزنًا بالغًا لذهاب أولئك الجيران العابرين لولا أن كان من حسن الطالع أن تولد أختي الصغيرة في ذلك الربيع نفسه في قلب المدينة القديمة الواسعة الواقعة على نهر يانجتزي Yangtze River حيث كنت أقيم. لقد شغلت نفسي جهد الطاقة بطفلتنا هذه، فقد مرضت أمي مرضًا ميئوس الشفاء بعد الولادة، وارتمى العبء الرئيس من العناية بهذه الطفلة على مربيتنا الصينية المسنّة، وعليّ أنا. وأسعدني كثيرًا أنني لم أدرك أن أمي تحتضر.

لقد بدأت هذه القصة بهذا العهد البعيد؛ لأنني أجدني الآن قد أحببت طفلتي قبل أن تولد بزمن طويل. فقد أردت أن يكون لي أطفال يخصونني، كما تبتغي معظم النساء، ولكنني أظن أن حبي الشديد للحياة وتعلقي بها قد أضافا عمقًا إلى هذا الحنين الطبيعي الذي كنت أحسه. كما أنني تعلمت بالتأكيد شيئًا من الصينيين الذين يرون أن الأطفال هم أغلى من كل شيء في الحياة. إن هؤلاء الصينيين يحبون الأطفال لذاتهم ولأمور أخرى غير هذا الاعتبار، ذلك أن الأطفال عنوان استمرار الحياة الإنسانية وامتدادها، والحياة الإنسانية هذه حبيب ثمين. وكنت على كل حال قد تشربت بهذا الجو الذي نشأت فيه.

لقد ولدت طفلتي هذه في ذروة شبابي. وأنا في تمام القوة والحيوية والابتهاج والمتعة بالحياة. لقد كانت حياتي في مواطن قد تبدو غريبة لمواطني الأمريكيين، ولكنها ليست غريبة بالنسبة إليَّ أنا. فقد كان بيتي حينذاك خارج مدينة صغيرة مبنية بالطين في شمال الصين. وكنت أرى من نوافذ ذلك البيت الحقول والمزارع، وهي تمتد مسافة عدة أميال، تزهو بخضرة القمح والنباتات القصبية الأخرى في الصيف، أما في الشتاء فيكتسي لون هذه المناطق بلون التراب. وكانت أيام الربيع أحب الأيام إليّ وأبهجها، فقد كان السراب يشرق ويتلألأ في الأفق البعيد فوق نبات القمح الأخضر اليانع الصغير. لم تكن توجد على مقربة منا بحيرات ولا جبال

ولكن السراب كان يحملها إلينا فتتراءى فيه. لقد كانت هذه الرؤى والمناظر معلقة فوق الأفق وكأنها أحلام خيالية، وكان من الصعب أن يعتقد المرء أن ما يرى من هذه المناظر غير حقيقي.

وكأية شابة أخرى، كانت لي أحلام كثيرة، كنت أحلم بتأليف كتب عندما أبلغ من العمر ما يؤهلني لأن أعرف الحياة. وكنت أطمع من الحياة دائمًا بالكثير الفائض المتدفق، وأراني- وأنا أتطلع إلى الماضي الآن- كنت أسعى دائمًا لمواجهة الحياة ولقائها. ولقد كنت على وجه التأكيد أرغب دائمًا في أن يكون لي أطفال. ولذا فقد بلغ فرحي وابتهاجي ذروة أحلامي عندما أيقنت أن طفلي الأول سيولد في سنة ما خلال الربيع. ولم أكن أعلم يومذاك بأنه لن يكون لي إلا طفل واحد فقط، إذ لم يخطر ببالي أن طاقتي لن تتجاوز هذا الحد، فقد كان كل شيء طبيعيًّا معي طيلة حياتي، وقد كنت من أولئك الذين يولدون محظوظين. ومن هنا فقد اعتبرت حسن طالعي أمرًا مسلمًا به، وعلى هذا كنت أرى بيتي مليئًا بالأطفال.

إنني لأتذكر الآن جيدًا اللحظة الأولى التي رأيت فيها طفلتي الصغيرة ورأتني. لقد كان ذلك في صباح يوم دافئ معتدل في شهر مارس. وفي اليوم السابق كانت إحدى صديقاتي الصينيات قد جاءتني بإناء فيه أزهار خوخ متبرعمة تفتح ونور قسم منها.

وكانت تلك الأزهار أول ما رأيت حين صحوت من تأثير المخدر. أما الشيء الآخر الذي وقع عليه نظري فقد كان وجه طفلتي التي لفتها الممرضة الصينية الشابة في دثار وردي وحملتها أمامي لأراها. لقد كانت ابنتي طفلة جميلة بشكل نادر. ملامحها واضحة بينة. عيناها، حتى في تلك اللحظة، على ما ظهرتا لي، حكيمتان هادئتان. لقد كانت تنظر إليَّ ونظرت أنا إليها، وكانت تلك النظرات تنطوي على إدراك متبادل مما بعثني على الضحك.

إنني أتذكر أنني قلت للممرضة: «ألا تبدو أعقل مما يقتضيه عمرها؟» ولم تكن ابنتي آنذاك قد بلغت من العمر ساعة واحدة. أعلنت الممرضة موافقتها قائلة: «إنها كذلك فعلًا» ثم أضافت: «كما أنها جميلة أيضًا. إن هناك لحدثًا خاصًّا ينتظر هذه الطفلة».

وما أكثر المرات التي فكرت فيها في هذه الكلمات! لقد تدبرتها بفخر واعتزاز في البداية كلما كانت الطفلة تنمو بشكل صحي دائمًا وعلى ما يرام. إنني أتذكر أنها عندما بلغت من العمر شهرين ورآها صديق من أصدقائي القدماء لأول مرة- وكانت طفلتي حتى ذلك العمر لم تر رجلًا ذا شارب أسود أبدًا- فحدقت النظر فيه برهة، ثم زمت فمها الصغير إلى الأسفل لتبكي، غير أن بعض زهوها حال دون انهمار دموعها فعلًا، فقال صديقي: «إن هذا غير عادي، إنها لتعرف منذ الآن ما هو غريب عنها».

إنني أتذكر أنها لما كانت أكبر من ذلك بشهر واحد وكانت مستلقية في سلتها الصغيرة على سطح باخرة، لقد كنت آخذها إلى هناك لتستمتع بنسيم الصبح طيلة سفرتنا في الباخرة. لقد كان الناس الذين يتنزهون على سطح الباخرة غالبًا ما يقفون ليتطلعوا إليها، وكان زهوي يعظم كلما أطروا جمالها الخلّاب المفرط والذكاء الذي تشرق به عيناها الزرقاوان العميقتان.

لست أدري أين أو في أي وقت توقف نمو ذكائها، بل إننا لا نعلم حتى اليوم لم حدث هذا التوقف. فلم يكن في عائلتي شيء يدفعني إلى الخوف من أن تكون طفلتي أحد أولئك الذين لا ينمون. والواقع أنني كنت حسنة الطالع في سلسلة أسلافي من كلا الجانبين، فقد كانت أسرة أبي متميزة بما أنجزت في ميادين اللغات والرسائل، كما كانت أسرة أمي أسرة مثقفة. أما من ناحية والدها فإن طفلتي كانت ذات أسلاف أشداء أقوياء، كان من بينهم بعض الأحيان أشخاص مبرزون. والحقيقة أنني لم يكن يعتريني أي نوع من الخوف، بل كنت بعيدة عنه بعدًا تامًّا. وقد حدث أن رأيت في صغري طفلًا واحدًا فقط من الأطفال ذوي العيوب، ذلك هو الابن الصغير لأحد المبشرين، ولم يكن ذلك الولد قد أثّر فيَّ أي تأثير أكثر من إثارة الحب والإشفاق عليه. أما بين الأطفال الصينيين فلم أر أي واحد من هذا القبيل. ولكن هناك على ما يظهر عدد قليل جدًّا من هؤلاء الأطفال بين الصينيين، وهم يبقون في

البيت إن وجدوا؛ ليجدوا رعاية دقيقة. ومن المحتمل أيضًا أنهم يموتون وهم صغار. وعلى كل حال، فليس هناك من أم شابة يمكن أن تكون أقل تهيؤًا واستعدادًا مني لما كان آتيًا.

لقد استمر جسم ابنتي الصغيرة في تقدمه الصحي. وكنا تركنا الصين الشمالية آنذاك، وأصبحنا نعيش في مدينة «نانكنج» التي قد تأتي بعد «بكين» من حيث كونها من أغنى مدن الصين في التاريخ والإنسانية. ومع أن داري كانت داخل جدران المدينة، إلا أن حياتي فيها كانت لا تزال ريفية، فقد كانت دارنا محوطة بحدائق ومروج ومجموعة من قصب البامبو وأشجار باسقة عظيمة. ذلك أن جدران المدينة عندما بنيت قبل قرون ضمت في داخلها أرضًا كافية، بحيث إن المدينة إذا حوصرت كان الناس بمنجاة من أن يموتوا جوعًا. أما «الدوّار» الذي كنا نسكنه فكان محوطًا بالمزارع وأحواض السمك.

كانت تلك الدار دارًا صحية بهيجة لطفل. ولم تكن ابنتي آنذاك قد فقدت جمالها، ولعلها بقيت كذلك إلى هذا اليوم، لو أن نور العقل ظل مشرقًا من وراء ملامحها، أظنني كنت آخر من يتصور أن هناك شيئًا غير سليم فيها، فلقد كانت هي طفلتي الأولى ومن ثم لم تتح لي فرصة مقارنتها مقارنة دقيقة بأطفال آخرين. وكانت قد بلغت من العمر ثلاث سنوات عندما بدأت لأول مرة أحتار في أمرها!

بلغت ابنتي من العمر ثلاث سنوات وهي لما تتكلم بعد. ولما كان الأطفال الذين تبنيتهم قد علموني أن أدرك أن الكلام إنما يؤتاه الطفل السوي بصورة طبيعية كما يؤتى التنفس، فالطفل لا يحتاج أن يعلم كيف يتكلم، إذ الكلام يأتيه مع النمو. فهو يسمع كلمات دون أن يفقهها ولكنه يومًا بعد يوم يزيد من وسائل نقل أفكاره التي تتسع باطراد. وعلى كل حال، فقد أصبحت قلقة غير مطمئنة. لقد كانت حياتي وسط كل ما يحيط بي من أشياء بهيجة مفرحة، وفي مطلع عهد جديد في التاريخ الصيني كان ينبض بالحياة، إذ إن الحكومة الوطنية قد كانت حينذاك تنهض وتستيقظ مما كان يبشر بالأمل الوطيد. كانت حياتي مثيرة صالحة بهيجة، ومع ذلك كله فأنا لا أزال أتذكر اضطرابي وقلقي المتزايد حول طفلتي حينذاك. لقد كان مظهرها يدل على أنها تتمتع بكامل الصحة والعافية، فقد كانت خدودها متوردة وشعرها منبسطًا أشقر وعيناها تشعان زرقة ناصعة دليل الصحة، فلم إذن قد تأخر عندها الكلام!

إنني أتذكر أنني كنت أسأل الأصدقاء عن أطفالهم، معبرة في ذلك عن هياجي وعدم ارتياحي الجديد إلى حال طفلتي. لقد كانت إجابات هؤلاء الأصدقاء تريحني- تريحني جدًّا، لقد أخبرني هؤلاء الأصدقاء بأن أطفالهم يبدأون الكلام في أعمار متفاوتة، وأن الطفل الذي ينمو في البيت مع أطفال آخرين يتعلم التكلم أسرع من الطفل الذي يكون وحيدًا منفردًا. لقد ردد هؤلاء

الأصدقاء كل العبارات الفارغة المؤكدة التي يستعملها عادة الأصدقاء الذين تدفعهم النية الحسنة في هذا الصدد، وصدقتهم فيما قالوا. وأخيرًا عندما عرفت الحقيقة المحزنة كلها، سألت هؤلاء الأصدقاء: أكانت لديهم معرفة حينذاك بما ألم بطفلتي، فوجدت أنهم كانوا يعلمون، وأنهم قد ظنوا وساورهم الشك في هذا الصدد، وأن الكبار منهم كانوا قد عرفوا ذلك وتيقنوه، ولكنهم جميعًا أحجموا عن إخباري بالأمر.

إنني لا أستطيع أن أفقه حتى هذا اليوم سر إحجامهم هذا، فالحقيقة عندي أعز بكثير من أي زيف ملطف. إن الجهر بالحق أكثر عطفًا ورحمة- على حده الجارح البتّار- من إخفاء الحقيقة وتجنبها، وإن الصديق كلما فضل التزم الجهر بالحق والتمسك به. إن هنالك لقيمة في الجرح السريع اللازم. وهكذا فقد بلغت طفلتي السنة الرابعة من العمر تقريبًا دون أن أكتشف لنفسي أن عقلها كان قد توقف نموه. قد تحين لكل منا ساعة استيقاظ للحقيقة المحزنة وقد يأتي الاستيقاظ كله في بعض الأحيان دفعة واحدة وفي لحظة من الزمن. أما للآخرين فقد يجيء هذا الاستيقاظ بطيئًا مجزَّأً كما كانت الحالة بالنسبة لي، فقد كنت متبرمة من الأمر غير معتقدة إياه حتى اللحظة الأخيرة.

لقد بدأ هذا الاستيقاظ في الصيف عندما كنت على شاطئ

البحر في الصين، حيث كانت الأمواج تدرك الشاطئ بهدوء ورفق حتى في أوقات هبوب عاصفة. لقد كان ذلك الصيف معتدلًا بهيجًا وكان ذلك الشاطئ مواجهًا الجبال. كنت أقضي الصباح مع طفلتي على الشاطئ ونركب في بعض الأحيان، بعد الظهيرة، حميرًا صغيرة رمادية اللون كانت تقف على طرف الشاطئ للتأجير، حيث نسير متنزهين على طول الوديان.

وبدأت طفلتي في ذلك الوقت تتكلم قليلًا فقط، ولكنه مع ذلك كان كافيًا لأن يهدئ من روعي وقتها. وهنا يجب ألا يعزب عن البال أنني كنت غير ذات خبرة بهذا الضرب من الأطفال تمامًا. أما الآن فإن بإمكاني أن أرى في أي جمع الطفل الذي يشبه طفلتي. إنني أرى هذا الطفل أولًا ثم أرى أمه وهي تحاول أن تبتسم، وتحاول أن تتكلم مع الطفل بسرور وانشراح، إن انشراحها هذا ما هو إلا ستار تخفي به طفلها عن الآخرين. ولكنني آنذاك لم أكن لأرى حتى طفلتي أنا كما كانت حقيقة، فقد كنت أقرأ معاني في إشاراتها ومن عباراتها القليلة المتكسرة. لقد أفصحت إحدى صديقاتي مرة قائلة: «إن هذه الطفلة لا تتكلم لأنها تحصل على كل شيء تريده دون أن تتكلم». ولذا فقد حاولت أن أعلم طفلتي أن تطلب الشيء حين تريده قبل أن أجيبها إليه. ولكنها لم تكن لتفهم على ما يظهر.

لقد كانت بالغة الاهتمام أكثر مما كنت أدرك من هذا الأمر على كل حال، ذلك أنني أتذكر أنني ذهبت يومًا ما لأستمع إلى طبيبة أطفال أمريكية زائرة تلقي محاضرة حول الأطفال في عمر ما قبل المدرسة. فلما أنصتّ إليها أدركت أن في ابنتي شيئًا غير سليم حقًّا. لقد أشارت الطبيبة إلى دلائل الخطر التي لم أكن أعرفها قبل استماعي لتلك المحاضرة. فالبطء في المشي، والبطء في التكلم، ثم الاضطراب المستمر عندما يتمكن الطفل من أن يمشي- ذلك الاضطراب الذي يتخذ شكل هرولة دائمًا هنا وهناك على غير هدى- كلها كانت من علائم الخطر. وهكذا فإن كل ما اعتبرت أنه دليل على حيوية الجسم الصحيح الممتاز، صرت أراه الآن على أنه قد يكون إفراطًا في طاقة عقل لم يستطع الاحتفاظ بسيطرته على الجسم.

وبعد أن انتهى الاجتماع، على ما أذكر، طلبت من الطبيبة أن تتفضل فترى طفلتي، ولقد وعدتني فعلًا بأن تأتي في اليوم التالي. ولم أخبر أحدًا بخوفي الشديد، وفي تلك الليلة التي لم أهجع فيها أبدًا، راجعت في ذهني مرارًا متعددة كل العلائم التي تدل على الخير والصحة في طفلتي، وتلك الأشياء التي يمكنها أن تقوم بها، فهي تستطيع أن تطعم نفسها، وأن ترتدي ملابسها بنفسها، وإن لم تستطع أن تزر أزرارها، وهي تحب أن تتصفح كتب التصاوير، وتفقه وتدرك أكثر بكثير مما كان في استطاعتها أن تقوله. ولكنني

مع هذا لم أكن أبتغي الاطمئنان الباطل الكاذب، بل أردت في ذلك الوقت وبسرعة أن ألمّ بالحقيقة كلها.

وجاءت الطبيبة في اليوم التالي وجلست ترقب طفلتي مدة طويلة، ثم أومأت برأسها قائلة: «إن هناك شيئًا غير سليم فيها، ولا أدري ما هو، يجب أن تستشيري مجموعة من الأطباء، ودعيهم يخبروك إن كانوا يعلمون».

وأوضحت لي الطبيبة معالم الخطر التي لم أكن رأيتها من قبل والتي يمكن ألا أراها. فلقد كان مدى الانتباه عند طفلتي قصيرًا حقًّا، بل أقصر بكثير مما كان ينبغي أن يكون عليه لطفلة في عمرها. لقد كان أكثر ركضها السريع الخفيف بلا غرض- كان مجرد حركة. أما عيناها الناصعتان بزرقتهما فقد كانتا تبدوان خلوًا من المعنى، عندما يحدق الإنسان النظر في أعماقهما، وما كانت عيناها تستجيبان لأي منبه، بل كانتا غير متغيرتين إن كان هناك خطأ عظيم..

وشكرت الطبيبة ثم ذهبت هي لشأنها، ولما فكرت في الأمر مليًّا، لم أجد مسوغًا لبقاء غريب ما ليخبرني أكثر مما خبرت، وربما لم تكن الطبيبة ذاتها لتعرف أكثر من هذا. ليس هناك من مهمة أشق من إخبار أب أو أم أن طفلهما الحبيب لن ينمو أبدًا ليكون بالغًا. لقد قمت أنا بهذا العمل في بعض الأحيان منذ ذلك

الحين، ولم أسمح لنفسي أن تحجم عن القيام به، ولكن هذا العمل كان شاقًّا. إن القلب يمكن أن ينكسر أكثر من مرة واحدة.

لقد اجتمع الأطباء في اليوم التالي، وفي استطاعتي أن أرى ذلك المشهد كما لو كان يحدث أمام عيني الآن. لقد كانت في الدار شرفة واسعة مطلة على البحر. وكان ذلك الصباح باهرًا، وكان البحر أزرق بنفسجيًّا وهادئًا عدا الزبد الأبيض الرقيق على الساحل. ولقد كانت الطفلة آنذاك مع مربيتها الصينية تلعب على الرمل وتخوض في الماء، وناديتهما فأقبلتا نحوي صاعدتين الطريق خلال أشجار البامبو... لقد كنت، على الرغم من فزعي، فخورة بطفلتي حين وقفت أمام الأطباء. كانت ترتدي «بدلة» سباحة بيضاء صغيرة آنذاك، وقد بدا جسمها المكين الذي لوحته الشمس قويًّا جميلًا، وأمسكت دلوًا «سطلًا» ومجرفة بإحدى يديها، وفي اليد الأخرى محارة بيضاء.

«إنها تبدو صحيحة معافاة بما فيه الكفاية» بهذا تمتم أحد الأطباء. ثم بدأوا يوجهون إليّ أسئلة، وأجبتهم بكل ما أملك من الأمانة والإخلاص، فلا شيء غير الأمانة ينفع في مثل هذا الموقف. وحينما كانوا يصغون إليّ كانوا يلاحظونها وبدأوا يشهدون: لقد سقطت المحارة من يدها فلم تلتقطها وانحنى رأسها فرفعها أكبر الأطباء سنًّا، وكان يعرف أبوي، وأجلسها على ركبته وبدأ يختبر

أفعالها المنعكسة. لقد كانت هذه الأفعال المنعكسة ضعيفة إلى درجة أنها تكاد تكون معدومة.

لقد كان الأطباء رجالًا عطوفين، ورجوتهم أن يخبروني بما ارتأوا، ومن ثم أن يعلموني بما يجب أن أقوم به. إنني أعتقد أنهم كانوا مخلصين في رغبتهم بأن يقوموا بهذا الأمر، ولكنهم لم يكونوا يعرفون ما كان غير سليم فيها، وحتى لو عرفوا هذا، فكيف السبيل إلى علاجه. وجلست صامتة أرقب الطفلة. لقد بدأت أشعر بأنهم قد اتفقوا على أن النمو قد توقف عند الطفلة، ولكنهم لم يعرفوا لماذا. لقد كانت هناك أعراض جسمية قليلة جدًّا- هي تلك التي أشرت إليها فقط- وأمطرني الأطباء بوابل من الأسئلة حول ماضي الطفلة وحول أمراضها، هل ارتفعت درجة حرارتها يومًا ما، هل سقطت الطفلة يومًا ما؟ لم يكن هناك شيء من هذا مطلقًا، فقد كانت طفلتي صحيحة معافاة منذ ولادتها، ولقد لقيت من العناية قدرًا بحيث لم تصب بأذى أبدًا.

وفي النهاية قالوا لي: «يجب أن تأخذيها إلى أمريكا، فقد يعرف الأطباء هناك ما هي مشكلتها. كل ما في وسعنا هو أن نقرر فقط أن هناك شيئًا غير صحيح فيها».

ومن ثم بدأت بتلك الرحلة الطويلة التي يعرفها آباء الأطفال الذين يشبهون طفلتي معرفة جيدة. لقد تحدثت إلى الكثيرين

منهم منذ ذلك الحين، فكانت مشكلاتهم دائمًا من نوع مشكلتي. إننا ندفع بالاعتقاد بأنه لا بد من وجود من يستطيع شفاء هذه الأمراض، ولذا نأخذ أطفالنا ونسيح بهم على وجه الأرض كلها باحثين عن الشخص الذي يستطيع أن يشفي العلة... إننا نصرف كل ما نملك من المال ثم نستدين حتى لا نجد من يقرضنا... إننا نراجع الأطباء، النَطَاسِيّ منهم وغير النطاسيّ، بل إننا نراجع أي شخص كان ابتغاء بصيص من الأمل وحسب. لقد وقعنا فريسة لأناس لا ضمائر لهم- لأناس يربحون أموالًا طائلة مما أصبنا به من بلاء- ولكننا بين حين وآخر نلاقي بررة يرون بلوانا ويقدرون خلو أيدينا فلا يتقاضون منّا شيئًا لقاء إسدائهم النصح، ما داموا لا يستطيعون أن يبرئوا المريض.

وهكذا فقد جئت وذهبت أنا أيضًا على وجه هذه البسيطة وأنا أكاد أفقد الأمل شيئًا فشيئًا، ولكنني لا أفقده نهائيًّا؛ لأنه لم يكن هناك طبيب من الذين لقيتهم أخبرني على وجه التأكيد بأن الطفلة ميئوس من شفائها. ولكن كانت هناك دائمًا العبارات الأخيرة المنطوية على التردد: «أنا لا أريد أن أقول بأن ليس هناك من أمل» ولذا فقد بقي بنفسي أمل كحال الآباء جميعًا.

لقد كانت المصيبة تزداد صعوبة بمرور الزمن لسبب آخر، فقد صارت الطفلة أكبر من ذي قبل جسمًا وعمرًا، ومن ثم كان

كلامها المتكسر وأساليبها الطفلية واضحة بينة. لم أكن لأحس بخجلي أنا من ذلك؛ لأنني نشأت بين الصينيين الذين يأخذون أي تشويه إنساني على علاته. فالعميان والعرج والمقعدون والخرس والمشوهون كنت قد رأيتهم، أثناء حياتي في الصين، يروحون ويغدون بين ظهراني الآخرين ويقبلهم الناس لذواتهم. ولم يكن هؤلاء الناس يجهلون عللهم، بل إن هذه العلل ذاتها تتخذ، في بعض الأحيان، سببًا في إطلاق كنى وأسماء عليهم منتزعة من عللهم.

من قبيل تلك الأسماء مثلًا: الأعرج الصغير الذي كان رفيقي في اللعب في عهد طفولتي المبكرة، فقد كان ولدًا ذا ساق ملتوية. وفي عرفنا الغربي نعتبر أن من القسوة تسمية هذا الطفل بالناحية المشوهة فيه «الكسيح». ولكن الصينيين لم يكونوا يعنون من مثل هذه التسمية شيئًا من هذا القبيل، ذلك أن هذا هو ما كان عليه الطفل حرفيًّا وساقه الملتوية كانت جزءًا منه. لقد كان هناك ضرب من التطهير للولد في اعتبار هذا المصاب أمرًا مسلمًا به. إن هذا المنحى من الاعتبار كان أسهل نوعًا ما من تجاهل أصدقائي الأمريكيين- ذلك التجاهل الدقيق- ذلك أن المصاب لم يكن ليشعر بأي حاجة لأن يخفي نفسه، إذ إن المصاب في الصين موجود كما هو، وكان يعرفه كل فرد... فهذا الاعتبار أفضل من أي زعم معسول بأن هذا المعلول يشبه أي فرد آخر.

يضاف إلى هذا، أن الصينيين كانوا يعتقدون أن السماء هي التي تتحكم في رسم مصائر الناس وحظوظهم، وعلى هذا الأساس يكون مصير أي فرد على أساس ما قدر له في السماء، لذا كانت الإصابة لا تعتبر عندهم نتيجة خطأ من أخطاء المصاب ذاته، ولا هي من أخطاء عائلته. زد على ذلك أن هؤلاء الصينيين كانوا يعتقدون، في شيء من الرقة الإنسانية، بمعنى أن الشخص إذا كان معلولًا في وجه ما، فإن هناك تعويضات لهذا النقص في وجوه أخرى، وهذه التعويضات ذاتها أعدتها وهيأتها السماء أيضًا. ولذا كان يعامل غير البصير دائمًا باحترام ومع شيء من الخشية في بعض الأحيان، ذلك أن هؤلاء الصينيين يعتقدون أن للأعمى بصيرة هي أنفذ بكثير من البصر وحده.

لقد كنا تشربنا بهذا الجو من الصراحة خلال السنوات التي عشناها أنا وطفلتي بين ظهراني الصينيين. ولقد ناقش أصدقائي الصينيون قضية طفلتي معي بشيء من السهولة وعدم التحرج كما ناقشوا أمورًا تخص أطفالهم. غير أنهم لم تكن لهم الخبرة الكافية لأن يعرفوا ما كان فيها من نقص، أو حتى ليعرفوا أنها كانت تعاني نقصًا. وكانوا يفسرون مشكلتها على: «أن عيني حكمتها لم تتفتح بعد، فبعض الأشخاص يؤتون الحكمة مبكرًا وبعضهم لا يؤتاها إلا مؤخرًا، فكوني صبورًا». هذا ما كانوا يقولونه لي. وعندما كنا نسير في الأزقة الملتوية الضيقة من مدينتنا القديمة لم يلاحظ أحد

طفلتي، عندما كانت تقف بلا سبب لتصفق أو- بلا سبب أيضًا- لترقص. أجل، لقد كان الصينيون رفقاء بي وبابنتي. فإذا حدث أن التفوا إلى ما كانت تقوم به ابنتي من حركات، ابتسموا وحسبوا ذلك ضربًا من سرورها وبهجتها، ثم يضحكون ويشاركونها في ضحكها وانشراحها.

وفي شوارع «شنغهاي» عرفت لأول مرة أن كل الناس ليسوا عطوفين على هذا النحو. فقد كانت هناك فتاتان أمريكيتان تتمشيان في الشارع، وأظنهما قد جاءتا حديثًا من وطني كما يبدو ذلك من ثوبيهما الأنيقين. لقد نظرتا شزرًا إلى طفلتي، وعندما جاوزناهما، قالت إحداهما للأخرى: «إن هذه الطفلة مأفونة» لقد كانت هذه أول مرة أسمع فيها هذا الاصطلاح العامي، ولم أستطع أن أدرك معناه، وكان عليّ أن أسأل بعض الناس حتى عرفت. إن الحقيقة يمكن أن توضع في عبارات وحشية قاسية. لقد بدأت منذ ذلك اليوم أستر طفلتي...

ليس هناك من جدوى في عرض تفاصيل سفرتي الطويلة المحزنة، فلقد قطعنا البحر وذهبنا إلى كل مكان، إلى عيادات الأطفال، وإلى المتخصصين في الغدد، وإلى علماء النفس. إنني أعلم الآن بأن ذلك كله لم يكن ذا جدوى. لم يكن هناك من أمل منذ البداية- ولم يكن هناك أي أمل أبدًا. إنني لا ألوم عامة أولئك

الرجال ولا تلك النساء لأنهم لم يخبروني بهذا- وإن كنت لا أعفيهم أفرادًا من هذا اللون، ذلك أن بعضهم، على ما أعتقد، كان يدري، وقد يكون هذا غير صحيح. وعلى كل حال فقد كانت نهاية كل مداولة طبية تعقد لغرض فحص طفلتي، أن ترسل إلى طبيب آخر، ربما على بعد ألف ميل.

لقد زودني أحد المتخصصين المشهورين بالغدد بأمل قوي، واستمرت طفلتي على المعالجة طيلة سنة كاملة، تعطى فيها جرعات من دواء الغدد. ومع أن تلك المعالجة لم تنفع ابنتي، إلا أنني غير آسفة على ما حدث، ذلك أنني تمكنت مما تعلمته في تلك السنة أن أنقذ طفلًا آخر بعد سنوات قليلة من ذلك التاريخ، كان ذلك الطفل في حاجة ماسة إلى ذلك النوع من العلاج. فقد رأيت طفلًا صغيرًا كان لا يزال يحبو على الأرض وهو في السنة الرابعة من العمر، حيث أدركت من أعراضه الظاهرة- من قبيل جلده وشعره الجافين، ولحمه الرخو، وجسمه الكبير الضعيف، وعقله المتخلف- أن به حاجة ماسة إلى معالجة الغدة الدرقية. لم أكن لأعرف أم هذا الطفل معرفة جيدة، ولكنني ذهبت إليها، متذكرة صمت أصدقائي، وأخبرتها بفكرتي. واستتبع ذلك فترة طويلة ارتسم فيها على وجهها الممتلئ ما كانت تعانيه من صراع داخلي مرير، لم تكن لترغب في أن تعرف هذه الحقيقة، ومع هذا فقد كانت تدري أنها يجب أن تعرفها. وتركتها وذهبت، وأخذت

هي طفلها إلى الأخصائي بالغدد حيث استطاع أن يساعد الطفل على أن يصبح سويًّا. لم يكن ذلك الطفل في الواقع متخلفًا عقليًّا، بل كان يعاني نقصًا في الدرقية. والتقيت بأمه بعد مضي سنين في بلد آخر، فشكرتني على ما قدمت لها من جميل تجاه طفلها. لقد كانت الصراحة- في هذا الصدد- تحتاج إلى شجاعة، والصراحة تحتاج إلى الشجاعة دائمًا.

وكانت نهاية سفرتي مع ابنتي في يوم من أيام الشتاء في مدينة «روشستر» من ولاية مينيسوتا، فقد أشير علينا في النهاية بالذهاب إلى عيادة مايو «Mayo clinic» فقضينا يومًا بعد يوم في تفاصيل فحص شامل، وكانت تلك التفاصيل دقيقة لا نهاية لها. لقد بدأت ثقتي تنمو كلما استمرت عملية الفحص، فمن المؤكد أن دراسة واسعة كهذه ومعرفة كثيرة على هذا النحو، لا بد أن تكشف لي عن الحقيقة، وعما يجب أن أفعله بصددها.

وأخيرًا ذهبنا إلى مكتب رئيس قسم الأطفال. لقد كان الوقت مساء، وكان كل فرد تقريبًا قد ذهب إلى بيته، فالبناية الضخمة كانت هادئة فارغة، وخارج النافذة لم أكن ألمح غير الظلام، وابنتي الصغيرة كانت تعبة جدًّا، وأتذكر أنها كانت قد ألقت برأسها عليَّ من شدة الإعياء، وراحت تبكي بهدوء، فاحتضنتها وضممتها إليّ وأنا أنصت لكلام رئيس القسم. لقد كان الطبيب

عطوفًا دمث الأخلاق. إنني لا أزال أرى صورته، طويلًا، في مقتبل العمر، وكانت عيناه فياضتين باللطف، وكان سلوكه هادئًا كأنه لا ينبغي لأحد أن يكون قلقًا أو عجولًا. لقد أمسك بيده التقارير التي أرسلت له من كل الشُعَب التي كانت ابنتي قد فحصت فيها. ولقد قام هو على ضوء تلك التقارير بتشخيص ما تعانيه ابنتي. إن أغلب ذلك التشخيص كان مصيبًا موفقًا. لقد كشفت الفحوص الجسمية أن كل أعضائها كانت سليمة وفي صحة جيدة، فلقد ولدت ابنتي بجسم سليم.

لقد كانت هناك وجوه أخرى من ذلك التشخيص جيدة أيضًا. فقد كشف أن لابنتي بعض الميول البارزة وخاصة في الموسيقى. لقد كانت هناك بعض المعالم التي تدل على أن لها شخصية غير اعتيادية كانت تناضل ضد نوع من أنواع العوائق ولكن... عقلها كان متخلفًا تخلفًا مفرطًا.

وسألته السؤال الذي أسأله الآن في كل يوم من أيام حياتي: «لماذا؟».

وهز الطبيب رأسه قائلًا: «لا أدري، لقد توقف النمو في وقت ما قبل ولادتها أو بعدها».

لم يستعجلني الطبيب، ولذا فقد بقيت قارة في مكاني ممسكة بالطفلة. فإن أي أب أو أم ممن قد مرت بهم مثل هذه الساعة

يعرف، ولا ريب، ذلك الألم المرير الهائل الذي يعتري القلب، والذي يتحول إلى ألم جسماني ينفذ إلى العضلات والعظام.

وسألته أنا: «أليس هناك من أمل؟».

إنه رجل لطيف عطوف، ولذا فلم يستطع أن يقول لي إن ليس هناك من أمل فيها، ولربما كان غير متأكد تأكدًا تامًّا من ذلك. وعلى الأقل فهو لم يقل بأنه كان متأكدًا، بل قال في النهاية: «لو كنت مكانك لما كففت عن المحاولة».

هذا كل ما جرى. لقد كان الطبيب متلهفًا لأن يعود إلى بيته، ولم يكن هناك سبب آخر للبقاء. لقد بذل الرجل كل ما في وسعه. ولذا فقد خرجنا- كما جئنا- ابنتي وأنا من مكتب الطبيب وسرنا في الردهة العريضة الفارغة. لقد انتهى اليوم، وكان عليَّ أن أفكر فيما يجب أن أقوم به بعد هذا.

وهنا جاءت اللحظة التي سأبقى ممتنة لها ما حييت، ولو فرض أنني أخبرت بأن طفلتي يمكن أن تصبح سليمة معافاة، لكان ذلك الإخبار يستتبع اعترافًا بالجميل أكثر من ذلك الشكر، ولكن لما كان هذا مستحيلًا، كان لا بد لي أن أكون مدينة بالشكر والفضل لذلك الرجل الذي طلع عليَّ بهدوء من غرفة خالية من الناس أثناء مروري بها، لقد كان رجلًا قصيرًا نحيفًا، يضع على عينيه نظارتين، ألمانيًّا على ما يبدو من هيئته ولهجته، كنت قد رأيته في مكتب

رئيس القسم مرة أو مرتين، والحقيقة أنه هو الذي أحضر إلى رئيس القسم مجموعة التقارير الخاصة بطفلتي، ثم ذهب دون أن ينبس ببنت شفة، وكنت لمحته من غير أن أنتبه إليه، وإن كنت الآن قد عرفته.

لقد طلع عليّ هذا الرجل خلسة تقريبًا، وأومأ إليَّ أن أتبعه إلى الغرفة الخالية. ودخلت وأنا مرتبكة نوعًا ما، وكانت طفلتي تشد على يدي. بدأ الرجل يتكلم بسرعة بلغته الإنجليزية الركيكة، صوت أجش تقريبًا، وكانت عيناه مركزتين على عيني.

وسألني: «هل أخبرك بأن طفلتك يمكن أن تشفى؟».

فأجبت متلعثمة: «إنه لم يقل بأن شفاءها غير ممكن».

فأمرني قائلًا: «أصغي لما أقوله لك.. إنني أخبرك، يا سيدتي، بأن الطفلة لا يمكن أن تصبح «سوية» أبدًا، فلا تخدعي نفسك، فستضيعين حياتك وتفقرين عائلتك إلى حد الإملاق، ما لم تطرحي الأمل في شفائها وتواجهي الحقيقة والواقع. إنها لا يمكن أن تصبح سليمة أبدًا- هل تسمعينني؟ إنني أعرف- فقد رأيت هؤلاء الأطفال، ولي بهم خبرة.

إن الأمريكيين كلهم ذوو رقة مفرطة، أما أنا فلست رقيقًا. إن من الأفضل أن تكوني صلبة حتى تتمكني من أن تعرفي ما يجب أن تقومي به. إن هذه الطفلة ستكون عبئًا عليك طيلة حياتك، فتهيئي

لأن تتحملي هذا العبء، إنها لن تتمكن قط من أن تتكلم بصورة جيدة، ولن تتمكن قط من أن تقرأ أو تكتب، وهي لن تكون قط أكثر من طفلة عمرها حوالي أربع سنوات على أحسن الأحوال. فهيئي نفسك يا سيدتي. إن عليك قبل كل شيء ألا تدعي قضية ابنتك هذه تفسد حياتك. أوجدي لها محلًّا يمكن أن تكون فيه سعيدة واتركيها هناك، وعيشي أنت حياتك الخاصة. إنني إنما أخبرك بالحقيقة في سبيل صالحك أنت».

أستطيع أن أتذكر هذه الكلمات بالضبط كما قالها ذلك الرجل، وأظن أن الصدمة قد طبعتها في ذاكرتي. كما أنني أتذكر أيضًا كيف كان يبدو تمامًا، فقد كان رجلًا صغير الحجم، أقصر مني، وكان وجهه شاحبًا صغيرًا ذا شارب أسود محفوفًا تبدو من تحته شفتاه الجامدتان. لقد كان ذلك الرجل يبدو قاسيًا، ولكنني أعلم أنه لم يكن كذلك. إنني أدرك الآن أنه كان يعاني الألم وهو يتكلم. لقد كان ذلك الرجل يعتقد بأهمية الصراحة وقول الحق.

إنني لا أتذكر الآن ما قلته أو حتى ما إذا كنت قد قلت شيئًا. إنني أتذكر فقط متابعتي السير ثانية أنا وطفلتي خلال تلك الردهة التي لا نهاية لها. إنني لا أستطيع أن أصف مشاعري. إن كل من مروا في مثل هذه اللحظات يعرفون ما كنت أعانيه، أما أولئك الذين لم تكن لهم مثل هذه الخبرة، فلن يستطيعوا أن يعرفوا حقيقة

مشاعري حينذاك، مهما تفننت في استعمال العبارات. ولعل أفضل طريقة لتصوير مشاعري تلك هي أنني قد شعرت كما لو كنت أقطر في باطني دمًا من اليأس والقنوط. أما طفلتي التي كانت فرحة لأن تكون حرة طليقة، فقد راحت ترقص وتقفز مرحًا وطربًا، ولكنها لما رأت وجهي مندى بالدمع راحت تضحك.

لقد كان ذلك كله قد جرى لي منذ زمن طويل، ومع هذا فهو لن ينقضي وسيبقى معي ما حييت. إن تلك الساعة لا تزال معي حتى الآن.

وبالطبع لم أكف عن الاستمرار في المحاولة، بالرغم مما قاله لي ذلك الألماني الضئيل الجسم، ولكنني أعتقد أنني أدركت بقلبي منذ تلك اللحظة أنه كان مصيبًا وأن ليس هناك من أمل. لقد كنت قد تقبلته من قبل أن يحين، وإن كان ذلك التقبل قد تم لا شعوريًّا، وهكذا أخذت طفلتي وعدت أدراجي ثانية إلى بيتي في الصين. وسأكون ما حييت شاكرة لذلك الطبيب الذي لا أعرف حتى اسمه. فلقد جرح جرحًا عميقًا بالغًا، ولكنه كان جرحًا نظيفًا سريعًا. فقد وضعني هذا الكلام، وجهًا لوجه، أمام ما لا بد منه.

* * *

الفصل الثاني

إن ما أكتبه ليس خبرة فريدة، بل هو أمر عام لكثير من الآباء والأمهات. إن كل طفل متخلف يعني عائلة منكوبة مجروحة القلب. إنني كثيرًا ما أحضر هذه الأيام منظمات الآباء والأمهات، وهي منظمات الآباء والأمهات الذين لهم أطفال مصابون بعاهات عقلية، وقد جمعتهم الحاجة العميقة الملحة للعزاء المتبادل والتعاضد المشترك. إن أغلب هؤلاء من الشباب، ولكم يتألم قلبي لبلواهم. إنني أعرف كل خطوة من خطوات طريقهم المليء بالتضحيات والآلام.

«إن المدارس لا تقبل أطفالنا»، قال لي أحدهم يومًا ما: «إن الجيران لا يريدون رؤية أطفالنا حولهم، إن الأطفال الآخرين يسيئون إلى أطفالنا. فما الذي يجب أن نفعله في هذا الصدد؟ وإلى

أين نتوجه؟ إن طفلنا إنسان على كل حال، وهو مع هذا مواطن أمريكي. إن له بعض الحقوق، أليس كذلك؟ وكذلك لنا حقوقنا.. أليس كذلك؟ وليس من الإجرام أن يكون لأحد طفل مثل طفلنا».

لا، إنها ليست جريمة، ولكن الناس- ومن بينهم المعلمون في المدارس، والجيران- قد يرون هذا الأمر أشبه شيء بالجريمة. إن أولئك الذين لديهم طفل ناقص عقليًّا يدركون كل ما أعنيه.

عندما فرضت عليّ الحقيقة التي لا مفر منها، وهي أن طفلتي لن تكون كبقية الأطفال، وجدتني أعاني مشكلتين، كلتاهما، على ما ظهر لي آنذاك، لا يمكن تحملها. المشكلة الأولى هي مستقبل طفلتي، إذ كيف يرعى المرء طفلًا قد يعيش حتى يصبح مسنًّا جدًّا من الناحية الجسمانية، ولكنه يكون دائمًا عاجزًا ويحتاج إلى عون؟ إن حياتها، على أبعد احتمال، ستمتد بعد انقضاء حياتي، فلقد تحدرنا من سلالة يعيش أفرادها طويلًا، ومع أنني قد أعيش طويلًا حتى أدرك الهرم، إلا أنني كنت قد أثقلت بالحزن والخوف خلال حياتي، أما ابنتي فلم تثقل عقلها الطفلي السعيد مثل هذه الأعباء. ذلك أن الوجل والتأثر لن يمساها أبدًا. فما الذي ستعانيه إن هي عاشت أطول مما أعيش أنا؟ ومن الذي سيعتني بها آنذاك؟ والحقيقة أن سعادتها كانت فيها راحة غريبة. فلقد خطر ببالي، وأنا أرقبها وهي تلعب ونفسي مفعمة بالأسى، أن هذه الطفلة

ستمر بالحياة كما تحيا الملائكة في السماء. ولن تكون مشكلات الوجود من شأنها أبدًا. فهي لن تدرك أنها كانت تختلف عن الأطفال الآخرين، ولن تفارقها مباهج الطفولة وانعدام المسئولية فيها طيلة حياتها. أما مهمتي أنا فكانت تنحصر في ضمان سلامتها وطعامها ومأواها ورعايتها بالعطف والحنان.

أجل قد تعلمت بمرور السنين أن أكون عميقة الرضا والامتنان بسبب الحقيقة التي فحواها أن طفلتي لا علم لها بنفسها. فإذا كان قد قدر لها ألَّا تكون كائنًا إنسانيًّا كامل النمو، فأنا سعيدة بعد ذلك أنها بقيت طفلة حقيقية. إن الذين يثيرون العطف والإشفاق هم أولئك الذين يعرفون معرفة غامضة مبهمة أنهم ليسوا كالآخرين. لقد رأيت هذا النفر من الناس أيضًا وسمعتهم يقولون في خشوع: «أنا أدري بأنني شبه أخرس» أو «أنا أدري بأنني معتوه» أو «إنني لن أستطيع أن أتزوج أبدًا لأنني شاذ». إن هؤلاء الأطفال المساكين لا يدركون حتى ما يقولونه إدراكًا تامًّا، ولكنهم يدركون ما يكفي لإيلامهم.

شكرًا لله وحمدًا إذ لم تكن طفلتي إحدى هؤلاء! فهي تستطيع أن تتمتع بسطوع الشمس وبالمطر، وهي تحب التزحلق وركوب الدراجة ذات العجلات الثلاث، وهي تجد متعة في الدمى والأواني الصغيرة، وفي تكديس الرمل. وهي تحب أن تركض على

الشاطئ وأن تلعب بالأمواج. وأهم من هذا كله، ولعها الدائم الذي لا ينقطع بالموسيقى... فهي تجد هدوءها وملاذها في الاستماع، ساعة بعد ساعة، إلى «أسطواناتها» الموسيقية. والموهبة التي تكمن فيها تظهر في تلك النشوة التي تستولي عليها وهي تصغي إلى السيمفونيات الكبرى وشفتاها تبتسمان وعيناها تتطلعان إلى أي مدى بعيد: أنا لا أدري.

إنها تفضل بعض الأنواع المعينة من الموسيقى، فالموسيقى الكنسية- وخاصة الأناشيد الدينية- تبكيها، ولذا فهي لا تستطيع أن تصغي إليها. إنني أعلم كيف تشعر، فهناك شيء جد مثير للعواطف الرقيقة في تلك الأناشيد الدينية التي ينتظمها تموج الأصوات الإنسانية التي ترتفع إلى الله، وهي لا تراه، ولكنها بحاجة إلى أن تستوثق بحبله. وابنتي لا تحب مطلقًا كل الأوزان القديمة والرخيصة، وفي صورة عامة لا تحب الموسيقى الشعبية على اختلاف أنواعها. فإذا ما أدار أحد أسطوانة من موسيقى الجاز فإنها تتألم وتصرخ: «لا، لا، إنني لا أحبها». وهي لا تكتفي برفع الأسطوانة وحسب، ولكن الأسطوانة يجب أن تُبعد عنها إلى خارج الغرفة. ولكنها تحب الإصغاء إلى كل الموسيقى القديمة العظيمة في انشراح لا نهاية له. فعندما كانت في البيت خلال الصيف الماضي استمعت إلى السيمفونية الخامسة لبيتهوفن كلها، إذ كانت تجلس إزاء الحاكي دون حركة، وعندما انتهت طلبت إعادتها كلها

مرة ثانية. إن ذوقها لا يخطئ، فهي تعرف- بشيء من الغريزة نوعًا ما- كل مجموعة من مجموعات أسطواناتها الموسيقية الكبرى. أنا لا أدري كيف تعرف ذلك كله وهي لا تستطيع أن تقرأ، ومع هذا فهي تستطيع أن تميز كل أسطوانة عن الأخرى، ولذا فهي تستمر في البحث والتفتيش حتى تجد الأسطوانة التي تلائم مزاجها.

لقد سطرت هذا كله لأنه ينطوي على ضرب من ضروب التعويض، ويجب أن يعلم آباء الأطفال الذين يشبهونها أن هناك تعويضات من هذا القبيل. فهؤلاء الأطفال الصغار يجدون ما يمتعهم. فإنني أعرف ولدًا صغيرًا- وأقول صغيرًا ولو أنه قد أصبح رجلًا ناميًا من حيث الجسم- يستمتع هذا الولد بلذة الإبداع مما لديه من مجموعة المنسوجات الملونة البراقة. فهو ينهمك بتصنيفها مرات متعددة ملتذًّا بألوانها وأشكالها وضروب نسيجها. إنه لا يتعب منها أبدًا. إن الوالد يتعلم أن يكون ممتنًا شاكرًا لأن المتعة تجد تعبيرًا لها، وهذا التعبير إن لم يكن بالطرق التي تنفع العالم، فهو على الأقل يتم بطرق وأساليب ترضي الطفل وتغنيه. إن هناك فرقًا من ناحية الكم، بالطبع، بين المنسوجات البرّاقة وبين صندوق الأصباغ التي يستعملها الفنان عادة، ولكن كليهما من الناحية النوعية سواء بالنسبة إلى الولد وبالنسبة إلى الفنان، ذلك أن كليهما يجدان في ذلك نفس الإشباع الروحي.

إن أول ما أقوله للوالدين هو: إن اكتشفتما أن طفلكما لا يمكن أن يكون سويًّا، فكونا فرحين إذا لم يكن في استطاعته إدراك حالته، ذلك أن عبء الحياة- في مثل هذه الحالة- يكون قد أزيح عنه وألقي عليكما وحدكما فقط، وأنتما تستطيعان أن تتعلما كيف تتحملان هذا العبء.

أن تعلم كيفية تحمل الأسى الذي لا بد منه ليس بالأمر الهين السهل، فأنا أستطيع الآن أن أنظر إلى الوراء، بعد أن تعلمت الدرس، فأرى الخطوات، ولكنني عندما كنت أخطو تلك الخطوات كانت تبدو صعبة حقًّا لا يمكن تذليلها، وبالإضافة إلى المشكلة العملية المتعلقة بحماية حياة الطفل التي قد تمتد بعد حياة والديه، توجد مشكلة أخرى و هي تعاسة الشخص.. فكل ما في الحياة من جمال قد ذهب، وكل هذا الجمال هو عاطفة الأبوة. والواقع أن هناك شيئًا أكبر من العاطفة قد فقد وهو الإحساس القوي بحياة الشخص التي جمدت في مثل هذا الطفل، وأن تيار الأجيال قد انقطع. والموت أهون على المرء بكثير من مثل هذا الشعور؛ لأن الموت نهاية. وما حدث في حالتي لم يكن كذلك. وكم صرخت من أعماق قلبي وتمنيت لو ماتت طفلتي، وإذا كانت هذ الحقيقة تفجع أولئك الذين لم يعرفوا مثل هذه الحالة، فهي لن تفجع أولئك الذين عانوا ما عانيت. لقد كنت أتمنى الموت لابنتي وأرحب به، وما زلت أتمناه وأرجوه؛ لأنني كنت أرى في موتها الأمان.

إن مما لا مناص منه هو أن يفكر المرء ويتأمل في موضوع هذا الموت الرحيم. وكم من مرة قرأت في الجرائد أن رجلًا أو امرأة قد أنهت حياة طفل ناقص عقليًّا. إن قلبي ليجزع ويتقطر أسى لمثل هذا الرجل أو تلك المرأة. فأنا أدرك الحب واليأس اللذين دفعا إلى الإقدام على مثل هذا العمل. ليس اليأس وحده هو الذي ينزل عندما يبدو المحتوم الذي لا بد منه، بل هناك القنوط المتزايد الذي يتراكم على مر الأيام، ذلك أن كل يوم يمر تحس بأن الطفل لا يزال كما كان بالأمس ويزيد ذلك في الشعور باليأس عندك، يضاف إلى هذا أن هناك سلسلة لا نهاية لها من الواجبات نحو هذا الطفل- وهي واجبات لا تؤتي ثمارًا- واجبات من شأنها رعاية جسم لن يكون أكثر من جسم مهما طالت به الحياة، فأنت تحدق في عيون بلهاء لا حياة فيها، وتساعد يدين مرتعشتين، كل هذا يزيد من اليأس في نفسك. سؤال آخر قد يزيد من اليأس والرعب.. سؤال أسأله لنفسي: «من سيقوم بكل هذا إذا ما مت أنا؟».

ومع هذا، فأنا أعرف أن هذين الوالدين اللذين أقرأ عنهما، ليس من حقهما أن ينهيا حياة طفلهما. أجل قد يقومان بهذا بدافع من الحب، ومع ذلك فإن ما يقومان به خطأ، ذلك أن في الحياة خاصة مقدسة لا يستطيع أحد منا أن يدرك كنهها، وكل الناس يشعرون بهذه القدسية، فإن قتل فرد بفعل شخص آخر لسبب يتعلق بالأخير وحده، يعتبر خطيئة في المجتمعات كلها. فالمجتمع يشرع القتل

في بعض الجرائم، ولكن البريء لا يعاقب بالقتل، وليس هناك من هو أكثر براءة من هؤلاء الأطفال. إن القتل هو القتل حتى ولو أسند حق قتل الطفل إلى أبويه؛ لأن تأثير ذلك في عالمنا سيكون تأثيرًا سيئًا حقًّا. وإذا أسند حق قتل البريء إلى المجتمع، فإن أثر ذلك سيكون مروعًا، ذلك أن الأطفال العاجزين قد يقتلون في البداية فقط، ولكن هذا قد يجر إلى اعتبار قتل الكبار العاجزين أمرًا صائبًا أيضًا، وهذا يؤدي إلى أن يصبح الضمير متبلدًا بحيث تتحكم العصبية في إعطاء الحق بالقتل، فيقضى على أشخاص من لون بشرة معينة أو لأنهم يعتنقون عقيدة معينة، والمنجى الوحيد من مثل هذه الشرور، هو نبذ فكرة القتل كوسيلة من وسائل القضاء على الحياة البريئة نبذًا كليًّا، مهما تكن عديمة الفائدة وغير ذات جدوى. والضرر لا يصيب المقتول وحسب، ولكنه يصيب من يقتل أيضًا. إن عبارة «القتل من دون ألم» (اليوثينزيا) عبارة طويلة رقيقة الجرس، وهي تنطوي على نفس الخطر الذي تنطوي عليه كثير من العبارات الطويلة الرقيقة الجرس، إن هذا الخطر ماثل في هذه العبارة على كل حال.

إنه لضرب من التملص، على كل حال، لو أنني ادعيت أن من اليسير أن نقبل الأمور كما هي. وسأقول من أجل أولئك الذين يسيرون في هذه الطريق الحجرية الصلبة، إن ثورتي الباطنية قد استمرت طوال أعوام عديدة. إن إحساسي، ومعتقداتي في

الواجب، كلها أملت عليَّ أن لا أدع الكارثة تحطم حياتي أو تهدم حياة الآخرين من أقارب وأصدقاء. غير أن الإحساس والشعور بالواجب لا يمكن بقاؤهما دومًا إذا ما تحطم القلب. ولذا فقد كانت التسوية التي لجأت إليها هي تعلم اصطناع العمل ظاهرًا، كما لو كان تعبيرًا عن نفسي الاعتيادية جهد الإمكان، فأتكلم وأضحك وأظهر ولعًا بما كان يجري من حولي. ولكن التمرد- الذي يختفي وراء هذا الظاهر- كان يتضرم ويتلظى، وكانت الدموع تنهمر انهمارًا في اللحظة التي أخلو فيها إلى نفسي. إن هذا العمل الظاهري حال بيني وبين أن يكون لي بالناس اتصال حقيقي. ولا ريب في أن هؤلاء قد شعروا بأن هذا الظاهر براق ضحل، وصدهم عني شعور بارد قاس لم يستطيعوا أن يدركوا كنهه أو أن يفهموه. ومع ذلك فقد كان من الضروري أن أحتفظ بذلك الظاهر؛ لأنه كان متعتي وصيانتي أيضًا، فلم يكن من الممكن خلال تلك الأعوام أن أشرك معي أي شخص في دخيلة أمري.

أما الآن فأستطيع أن أتحدث عن ذلك كله بشيء من التحرر والانفصال، لأنه أمر قد ذهب وانقضى. لقد تعلمت درسي. ولكن من الممتع لي، وقد يكون قليل الأهمية لبعض الناس من ناحية كون ما مر عملية وحسب، أن أتحدث عن تعلمي كيف أعيش مع الأسى الذي لا يمكن رده. وعلى هذا الأساس، فلأتحدث عنه بهذه الصورة إذن:

إن الطور الأول من هذه العملية كان كارثة ولم يكن منظمًا. فلم تبق لي- كما قلت من قبل- متعة في شيء، فقد أصبحت كل العلاقات الإنسانية بلا معنى... كل شيء أصبح بلا معنى. ولم يبق لي ولع بالأمور التي كنت أجد فيها لذة من قبل، فالخضرة، والأزهار، والموسيقى، أصبحت كلها خالية من أي معنى. ولم أعد في الواقع أتحمل سماع الموسيقى أبدًا. ومرت أعوام طوال قبل أن أصبح مرة ثانية قادرة على الإصغاء إلى الموسيقى. ولقد بقيت عاجزة عن الاستماع إلى الموسيقى حتى بعد أن قطعت عملية التعلم هذه شوطًا بعيدًا، وحتى بعد أن أصبحت روحي متكاملة من جديد على إثر الفهم والإدراك- إدراك طبيعة مصيبتي- وقد كنت أقوم بعملي آنذاك، وكنت أحاول أن يكون بيتي أنيقًا نظيفًا، وكنت أجمع الأزهار لأحلي بها «الزهريات»، ولقد زرعت الحديقة من حولي وعنيت بالأزهار فيها ونظمت وجبات الطعام، بحيث كانت تقدم دائمًا بانتظام وعلى ما يرام. وكان يزورنا ضيوف، وكنت أؤدي واجبي وأقوم بدوري في الهيئة الاجتماعية. ولكن ذلك كله لم يكن ليعني عندي شيئًا، فقد كانت يداي تنجزان ما كان عليهما من أعمال روتينات الحياة الرتيبة. والساعات الوحيدة التي كنت أحياها حقيقة، هي تلك الساعات التي أكون فيها وحيدة مع طفلتي... فعندما كنت أخلو إلى نفسي كنت أدع الأسى يتخذ طريقه، وكانت روحي تستنفد طاقتها في الثورة على القدر وفي

التمرد العارم عليه. ومع هذا كنت أحاول إخفاء بكائي عن طفلتي؛ لأنها كانت تحدق فيَّ ثم تضحك كلما رأتني أبكي. وكان هذا الضحك الخالي من الإدراك هو الذي كان دائمًا يسحق قلبي ويحطمه.

أنا لا أدري متى حدث الانقلاب ولا أدري لماذا؟ ولكنني أعرف تمامًا أنه صدر عن نفسي وانبعث منها. لقد كان الناس ذوي رحمة وعطف كافيين، ولكن لم تجئني مساعدة من أي فرد. وقد يكون ذلك خطئي وتقصيري، إذ من المحتمل أنني جعلت ظاهر حالي ناعمًا طبيعيًّا بحيث لم يستطع أحد أن يرى ما وراء ذلك من واقع الحال. لقد كان ذلك شقًّا من الأمر على ما أعتقد، وكان الشق الآخر هو أن الناس يحجمون عن النفوذ إلى ما تحت المظاهر. إن أولئك الذين يعرفون الأسى الذي لا مفر منه، هم وحدهم الذين يفقهون ما أعني.

في تلك الأيام فقط عرفت كيف أميز بين نوعين من الناس في العالم: هؤلاء الذين واجهوا أسى لا مفر منه، وأولئك الذين لم يواجهوه. ذلك أن هناك نوعين أساسيين من الأسى والأحزان: نوعًا يمكن تخفيفه وتهوينه، ونوعًا لا يمكن تخفيفه ولا تهوينه، فموت الوالدين أمر محزن؛ لأنهما لا يمكن أن يعوضا، غير أن موتهما ليس أسى لا مفر منه. فهو أسى طبيعي، أسى لا بد للمرء أن يتوقعه

في مجرى الحياة الاعتيادية... أما شلل جسم المرء شللًا لا شفاء منه، فهو ينطوي على أسى دائم لا مفر منه، إذ يجب على المرء أن يحيا بهذا الجسم المشلول. زد على ذلك أنه يجب أن يستعمل هذا الجسم المشلول في نوع من الحياة، وهو غير ذلك النوع الذي كان مصممًا لأن يستعمل المرء فيه جسمه في حالة الصحة. فالأسى الذي يموت يمكن تحمله، ولكن الأسى الذي يبقى هو الذي لا يمكن أن تتحمله أبدًا. إن الآلام والأحزان التي يمكن أن تموت وتندثر يمكن أن تهون، ولكن الأسى الحي أو الألم الحي لا يمكن أن يهون أبدًا. فكأن هذا النوع من الأسى حجر قد ألقي في مجرى الماء، كما يقول براوننج Browning وعلى الماء أن ينشطر عنده ويغير اتجاهه؛ لأن الماء لا يستطيع إزاحة ذلك الحجر.

وعرفت أخيرًا، من نظرتي إلى الوجوه، ومن إصغائي إلى الأصوات، أن أولئك الذين كانوا يدركون ما معنى أن يعيش المرء وهو يعاني أسى لا يمكن أن ينتهي. لم يكن يسعدني أن أعرف أن الآخرين يقاسون ما أقاسي، ولكن ذلك دفعني أن أعرف أن الآخرين عرفوا كيف يعيشون مع هذه الآلام، وإنني أستطيع أنا الأخرى أن أفعل ذلك. وذلك- فيما أفترض- كان بداية التحول، ذلك أن اليأس الذي كنت مغمورة فيه عندما أدركت أن لا شيء يمكن عمله من أجل الطفلة كي تحيا على ما هي عليه من نقص، كان قد أصبح مستنقعًا يمكن أن يغرقني في تفاهات. فاليأس الذي

يكون عميقًا مسيطرًا كهذا اليأس الذي عانيته لمما يسمم الكيان الإنساني كله ويحطم الفكر والنشاط.

إن صحتي الطبيعية، على ما يبدو، كان لها بعض الأثر أيضًا في هذا الأمر. فقد كنت أرى أن الشمس تشرق وتغرب، وأن الفصول تأتي وتذهب، وأن حديقتي كانت تزدهر، وأن الناس يسيرون في الشوارع ويمكن أن يسمع ضحكهم.

ومهما يكن من أمر، فعملية الانسجام والتكيف كانت قد بدأت، وكانت الخطوة الأولى في هذا الصدد قبول ما كان، وربما كان ذلك قد حدث شعوريًّا في يوم ما. وربما كانت هناك لحظة أقنعت فيها نفسي فعلًا: «بأن هذا الأمر لا يتغير ولا مناص منه، وليس هناك من يستطيع أن يعينني عليه، وعليَّ أن أتقبله»... والواقع أن هذه الخطوة كان يجب أن تتخذ مرارًا متعددة، فلقد زلقت مرتمية في مستنقع اليأس مرارًا وتكرارًا. وقد كان مرأى الابنة الصغيرة السوية لأحد الجيران وهي تتكلم وتنجز من الأمور ما لا تستطيع ابنتي أن تقوم به أبدًا، كافيًا لأن يدفعني إلى حضيض ذلك المستنقع. ولكنني تعلمت ألا أمكث هناك، فقد صرت أتسلق صاعدة مرة أخرى، وتعلمت أن أقول: «إن هذه هي حياتي وعليَّ أن أحياها».

هذا ولما كان عليّ أن أحيا هذه الحياة، فقد كان من الواجب

عليَّ- بمرور الزمن- أن أحاول التمتع بما أستطيع التمتع به في تلك الحياة. ولقد كانت الموسيقى لا تزال محببة إليَّ، غير أن هناك أشياء أخرى أستطيع التمتع بها- وكانت الكتب، على ما أتذكر، أول تلك الأشياء، وكان الأزهار تليها من هذه الناحية- وهكذا بدأت أعني نوعًا ما بالورود التي كانت عندي. بدأت ذلك كله، على ما أتذكر، بصورة تدعو إلى العجب والدهشة أن تلك الأشياء استمرت كما كانت من قبل، ومن ثم بدا لي أن ما حدث لي لم يغير في الواقع شيئًا غير نفسي.

ومع هذا فإن الحياة لم تبدأ فعلًا مرة ثانية حتى دفعتني الضرورة إلى أن أرى ما يجب أن أعمله من أجل طفلتي. لقد كان هناك بعض الأمور العملية المعينة التي يمكن، بل يجب، أن تنجز بهذا الصدد، أيجب أن أبقيها معي، أم لا بد أن تجد لها مأوى بين أمثالها من الأطفال؟ أفتكون أسعد إذا بقيت معي، أم فيما إذا عاشت مع هؤلاء الأطفال؟ لو كان هناك ضمان لها وطمأنينة في حياتها معي، لشعرت أن من الأفضل أن أبقيها معي، ذلك لأنني لا أعتقد أن هناك من يستطيع أن يفهمها كما كنت أفهمها أنا، أو يستطيع أن يؤدي لها ما أستطيع أن أقوم به أنا نحوها؛ لأنني أنا التي ولدتها، ومن ثم فأنا التي يجب حينئذ أن أتحمل مسئوليتها.

لقد أصبح الحيز المعزول الذي كانت تشغله ابنتي واضحًا لي

حينذاك. فليس في العالم مكان مناسب للعاجزين الذين لا عون لهم. فإذا حدث أن أموت وأنا بعد في مقتبل العمر، فما مصير طفلتي هذه؟ لقد كنا نعيش في الصين آنذاك. وكان خير ما يمكن أن يتوقع أن تؤخذ ابنتي إلى وطننا، الولايات المتحدة الأمريكية، وأن يعهد بها إلى مؤسسة ما. فهناك فقط يجب أن تحقق التكيف للحياة وحدها من دوني، ومن دون مربيتها الصينية، ومن دون كل ما كان يعني معنى البيت عندها. ومع هذا فإن هناك احتمالًا أنها قد لا تستطيع أن تحقق هذا التكيف وحدها. ومن المؤكد أنها لن تكون قادرة على أن تدرك لِمَ كان من الضروري أن تقوم بمثل هذا التكيف، وقد يزعجها هذا اللغز وما يستتبع من ألم وحزن إلى درجة هي فوق طاقتها من التحمل والضبط. ولقد تبادر إلى ذهني حينذاك أن من الأفضل لها أن تحقق هذا التكيف في أثناء حياتي، حيث أكون قادرة على مساعدتها. وتراءى لي أنها تستطيع أن تغير تدريجًا من جذورها في بيتي، لتستبدل بها جذورًا جديدة أخرى في مأوى آخر، ولا سيما إذا هي علمت أنني بالقرب منها، وبوسعي أن آتي لرؤيتها بين حين وآخر.

لقد كنت وضعت تصميمي على أن ترسم مستقبلها وحدها. وأجلت قراري هذا لسبب خارج عن نطاق حياتي. فقد كانت الصين يومذاك ميدان حروب أهلية وثورات. وقد اتخذ تصميمي هذا شكله النهائي، على ما أظن، في يوم معين، أشرت إليه في

مكان آخر، حيث أُكره رهط من الجنود الشيوعيين الأمريكيين والأجانب الآخرين أن يتركوا بيوتهم، وقتلوا بعضهم، وأجبروا من بقي منا على أن نختفي لنأمن على حياتنا، فهيأت لنا صينية رحيمة مأوى في كوخها الصغير، وهناك في ذلك اليوم الطويل واجهت الموت أنا وكل عائلتي. ولكنني قد شغلت بالتفكير في طفلتي أكثر من أي شيء آخر. ورأيت أن لحظة الموت إن دنت، فيجب عليَّ أن أعمل جهدي لأن أجعلها تُقتل أولًا؛ ذلك أنني لا أستطيع أن أدعها في أيدي جنود وحشيين.

كان هذا الوضع، كما أشرت آنفًا، وضعًا فريدًا شاذًّا وليس ذا أهمية لأولئك الذين أكتب لهم هذه القصة، غير أن المسألة الأساسية تبقى كما هي بالنسبة لنا نحن الذين عندهم أطفال لا ينمون أبدًا، فإننا يجب أن نفكر فيما وراء حدود حياتنا من أجلهم.

وقد أصبح واضحًا أيضًا، كلما مر الزمن، أن ابنتي الصغيرة يجب أن تجد لها رفقاء. والأصدقاء الذين يروحون ويغدون إلى بيتي لا يمكن أن يكونوا أصدقاءها أبدًا. ذلك أنهم، على شفقتهم وعطفهم، كانوا يشعرون أن هذه الطفلة عبء عليهم، ومن ثم كانوا بدورهم عبئًا على طفلتي وعليَّ أنا، وهكذا أصبح من الواجب حقًّا أن أبحث لها عن عالم يلائمها.

ومرة ثانية كانت هناك حادثة بسيطة في ذاتها، ولكنها قد

بلورت تفكيري، فقد كان لنا بعض الجيران من الأمريكيين في مجتمعنا الصيني الواسع الذي كنا نقيم فيه، وكان لأحد جيراننا طفلة صغيرة عمرها في مثل عمر ابنتي. وكانتا تتبادلان الزيارات المتقابلة دائمًا. ولقد جاءت هذه الطفلة الصغيرة يومًا إلى داري لتلعب مع ابنتي على عادتها، غير أنها كانت تغمغم كما تغمغم البنات الصغيرات وقالت: «لقد قالت لي ماما: لا تأتي بالبنت الصغيرة المسكينة إلى حفلاتك بعد الآن، ولذا فأنا لا يمكن أن أقبلها في بيتي بعد هذا أبدًا».

وهكذا كان، فلم تدع ابنتي في المرة التالية. وهكذا بدأ الانفصال العظيم بين ابنتي والأخريات. وقد أدركت آنذاك أنه يجب أن أجد لطفلتي عالمًا آخر لا تهان فيه ولا تنبذ- عالمًا تستطيع أن تجد فيه مستواها الخاص بها، وتجد فيه أصدقاء ومودة، وإدراكًا لها وتقديرًا، وصممت منذ ذلك اليوم أن أجد المؤسسة الملائمة لها.

ولعل من الضروري أن أشير إلى ظرف آخر كان يتسم به الوضع الذي كنت فيه. فعندما فاتحت واحدة أو اثنتين من أقرب صديقاتي الصينيات بما صممت عليه، ذهلتا واضطربتا إلى حد كبير؛ لأن الصينيين لا يعتقدون في المؤسسات، وهم يشعرون- وهم على صواب في هذا- أن العاجز والصغير والهرم، يجب أن يتركوا لعناية العائلة، على أساس أن ليس هناك من غريب، مهما

يكن عطوفًا رحيمًا، يمكن أن يطمئن إلى عطفه كما يطمئن إلى عطف العائلة على فرد من أفرادها في هذا الباب. ولذا فليس هناك من دور للشيخوخة في الصين، كما لا توجد مؤسسات لليتامى، فيها ما عدا تلك التي أنشأها الغربيون، وليس هناك من مستشفيات للمجانين أو ملاجئ للناقصين عقليًّا. وأمثال هؤلاء الأشخاص إنما يعتني بهم أهلوهم في البيت ما عاشوا. ولهذا فقد رأى أصدقائي الصينيون أن من القسوة أن أفكر في ترك أمر ابنتي إلى الغرباء خارج البيت، ولم يفد في إقناعهم ما أوضحت لهم من فروق بين الأسرة الأمريكية والأسرة الصينية، ذلك أن البيت الصيني بيت ثابت مستقر، ومن شأنه أن يستمر في نفس المسكن من جيل إلى جيل. ومن خصائصه أيضًا أن كل الأجيال المتعاقبة تعيش تحت نفس السقف، وأفرادها مسئول بعضهم عن بعض. والحق أن مثل هذا البيت العائلي هو بيت مثالي من ناحية العناية بالعاجزين.

لم يصدق أولئك الصينيون الأصدقاء بأن ليس لي بيت كهذا حتى في وطني الأصلي. لقد كان أقربائي غرباء عني؛ ذلك لأنني نشأت وكبرت بعيدة عنهم، ومن المؤكد أني لا أتوقع أن يعنوا بطفلتي العاجزة فيما لو توفيت أنا. يضاف إلى هذا أن أقربائي هؤلاء كانوا يعيشون في بيوت منفصلة، فهم سيعتبرون ولا شك إيداع طفلتي لعنايتهم أمرًا من قبيل الإثقال عليهم. إن مجتمعنا

مجتمع انفرادي حقًّا، ولذا كان على الدولة أن تؤدي للفرد ما تقوم به العائلة، وتؤديه لهذا الفرد في المدنيات التي هي أقدم من مدنيتنا. وقد كان من الصعب أن أوضح هذا الأمر لأصدقائي الصينيين، كما كان من الصعب ألا أتأثر باستعطافهم أن أدع الطفلة معي وفي رعايتي.

وكان السؤال التالي هو: كيف ينبغي أن يحقق هذا العزم ومتى؟ ولقد عرفت بما فيه الكفاية أن نوع المحل الذي كنت أبتغي أن تعيش فيه طفلتي سيكلفني مالًا لم أكن أملكه حينذاك.. ولم يكن هناك من يدفع هذه التكاليف غيري أنا. ولذا كان عليَّ أن أبتدع وسائل أخرى أحققها لطفلتي.

إنني أتحدث الآن عن نفسي وحسب، وأنا أعرف جيدًا أن ما قمت به في هذا الشأن لا يمكن أن يحدث دائمًا. والحقيقة هي أنني لم أكن أعني بالمال أبدًا، منذ الأيام التي بدأت فيها أكسب عيشي بنفسي، وعلى الأقل، منذ بلغت السنة السابعة عشرة من العمر، وكنت يومذاك في الكلية. وقد علمني الاستقلال الذاتي أن الأمر المهم هو: أن أعرف آنذاك ما كنت أريده، ومن بعد أستطيع دائمًا أن أجد الوسائل للحصول عليه. وقد كانت هذه العادة مستحكمة فيّ. وعلى هذا الأساس صممت آنذاك- إذا حان الوقت- أن أرجع إلى بلدي وأبحث عن المكان الذي يمكن أن يصبح بيتًا لطفلتي.

إن في التوصل إلى تصميم راحة واستقرارًا لا حد لهما، ذلك لأنه يعد الهدف. وقد لوح بحبل الإرشاد على ذلك المستنقع، فتعلقت به ورحت أجر نفسي من ذلك اليأس يومًا بعد يوم، كلما أصبح الهدف أكثر وضوحًا لي. ومعرفتي بما كنت عازمة على القيام به، وتفكيري في كيفية تحقيقه، لم يشفياني من الأسى الذي لا مناص منه، ولكنهما ساعداني على معاناته. فقد أقلعت عن استغلال كل قواي الروحية في التمرد والثورة، وأقلعت أيضًا عن ترديد السؤال: «عن علة وجود هذا؟» ترديدًا مستمرًا. والسر الحقيقي في هذا كله، هو أنني بدأت أقلع عن التفكير بنفسي وبألمي، وصرت أفكر في طفلتي فقط. وكان هذا يعني فيما يعني أنني لم أكن أكافح الحياة. ولكنني كنت متجهة ببطء، وفي بعض الأحيان على غير هدى، نحو الوفاق والانسجام مع الحياة. ولن تكون الحياة محتملة ما دمت قد ركزت الأمر حول نفسي. ولكنني عندما أزحت ذلك المركز، ولو قليلًا، بدأت أدرك أن الأسى يمكن أن يحتمل، وإن كان صعبًا بالطبع، ولكنه ممكن على كل حال.

كما أنني شعرت بأنني يجب، قبل أن أدع طفلتي تتركني، أن أختبر استعدادها بنفسي، وأن أتعلم بأن أعرفها معرفة شاملة عميقة حتى أستطيع أن أقوم بأفضل انتقاء ممكن لمأواها المقبل. لقد صممت أن أقف لهذا الأمر سنة أكرس فيها كل وقتي لطفلتي وأقضيه معها، ما عدا الوقت الذي أصرفه للمهام العائلية

الأساسية... وصممت على أن أحاول تعليمها القراءة والكتابة وتمييز الألوان بعضها من بعض وتعليمها «النوتة الموسيقية» ما دام لها ولع بالموسيقى، وأن أحاول تعليمها أن تغني أغاني قصيرة. ولم أكن أعلم حينذاك أكانت هي تستطيع أن تقوم بهذا كله. وكان يهمني أن أعرف أهي لا تستطيع أن تقوم بهذا، كما كان يهمني أن أعرف إن كانت تستطيع.

لقد ساعدني على هذا، بطريقة غريبة، ما كان يحدث في الصين آنذاك، ذلك أن استيلاء القوات الثورية الوحشي على نانكين «Nanking» قد اضطر البيض كلهم أن يتركوا المدينة مدة من الزمن. وقد حدث هذا الاستيلاء على المدينة في أوائل الربيع، وعلى إثر ذلك ذهبنا إلى اليابان لقضاء صيف سلمي في الجبال الخضر الجميلة التي تعلو ميناء «ناجازاكي» البحري. وقد كان ذلك الصيف صيفًا سعيدًا فريدًا من نوعه. وعشنا هناك في بيت ياباني صغير بين الغابات مجردين من المسئوليات والممتلكات. وكانت تلك الفترة لهذا بمثابة رجوع إلى الطبيعة.. وكانت بالنسبة لي، وبعد تلك السنين الصعاب، فترة استشفاء. ولم أعرف هناك أحدًا غير صيادي السمك اليابانيين الظرفاء الذين كانوا يجيئون إلى تلك المنطقة لبيع «أبي الجنيب» والأسماك في الصباح المبكر. وكانت طفلتي تستطيع الهرولة حيثما شاءت ورغبت، بينما كنت أنا أقوم بتدبير المنزل تدبيرًا بدائيًّا. وكنت آنذاك أطبخ على مجمرة

«موقد الفحم» تملأ بالفحم، كما كانت تفعل النساء اليابانيات، وكنا نقتات على الأرز والسمك والفواكه.

وهنا لا بد لي أن أتوقف هنيهة؛ لأبعث لأولئك اليابانيين الذين لقيتهم في تلك الأشهر المبهجة من أشهر العطلة الاضطرارية بهدية صغيرة من الشكر والامتنان. ولقد صممت في أواخر الصيف أن أستفيد من وقت الفراغ، فأقوم بجولة في اليابان. وقمت بتلك الجولة مع طفلتي حيث كنا نسافر خلال النهار بالقطار وفي الدرجة الثالثة ليتسنى لي أن أقتصد النقود، وليتسنى لي لقاء عامة اليابانيين والتعرف إليهم. وكنا نأكل في وجبة الغداء خلال تلك الجولة أطعمة نشتريها من الباعة في المحطات في صناديق خشبية صغيرة نظيفة، مقسمة إلى أقسام كل منها مليء بالأرز والكامخ والسمك على التوالي. وكانت طفلتي تتناول الحليب الحار المعقم بطريقة «باستور»، والموضوع في زجاجات مختومة لأول مرة في حياتها.

وكنا نترك القطار في الليل وننام في منازل صغيرة نظيفة من منازل القرى، حيث لا نرى غير الوجوه اليابانية. وكنا نترك أحذيتنا في مدخل المنزل، حيث تضع الخادمات اليابانيات الماهرات الأنيقات نعالًا خاصة في أقدامنا، ثم نقاد إلى حمّام حارّ، ومن ثم إلى غرفتنا في المنزل. ومن بعد ذلك تحضر وجبة طعام العشاء في أوان خشبية مطلية طلاء يابانيًّا خاصًّا، وتحتوي على حساء دجاج

أو حساء لحم عجل، وبيض، وسمك، وأرز، وشاي. ثم يؤتى بفراش ناعم ناصع نظيف من الخزانات الجدارية، ويفرش لنا على أرض نظيفة مسفوفة أشبه بسف الحصير. لقد كنت غالبًا أستيقظ ليلًا لأرسل بصري في الحديقة المضاءة بضوء القمر الخافت، ولم تكن تلك الحديقة على الأرجح غير بضع أقدام مربعة، ولكنها كانت مع ذلك توحي بالمكان الفسيح واللانهاية. وذلك كله من وحي العبقرية اليابانية. ولقد كنا نواجه، حيثما سرنا وأينما حللنا، باللطف والأدب. ولم يكن هناك أي دليل على أن أحدًا ما رأى في طفلتي وجهًا من الغرابة. فقد كانت مقبولة عندهم على ما هي عليه، وكانت تعامل بمنتهى اللطف والرعاية والحنان. وكان هذا الوجه من سلوك اليابانيين بلسمًا لي ومجلبة للشفاء أيضًا.

ثم رجعنا إلى الصين في أواخر الخريف، قبيل عيد الميلاد، لنقضي سنة في شانغهاي. وكنا أخبرنا حينذاك أن الحالة في نانكين لا تزال غير أمينة ولا هادئة. لقد كانت تلك السنة التي قضيتها منفردة بطفلتي سنة تربية عميقة بالنسبة لي. فأنا حين أتدبرها الآن أشعر بأنها كانت البداية لكل معرفتي الحقيقية بالعقل البشري. لقد كنا نشغل حينذاك ثلاث غرف في الطابق العلوي من دار كانت تسكنها عائلتان أخريان لاجئتان مثلنا. وفي هذه الدار وضعت خطة لأيام طفلتي ولأيامي، بحيث إنني كرست وقتًا معينًا للكشف عما يمكن أن تتعلمه طفلتي. وتذرعت خلال تلك السنة

بالصبر والخضوع لقابليات طفلتي، ذلك أن الجزع وفقدان الصبر كانا خطيئة وجرمًا في مثل هذه الحالة. وهكذا بدأت هذه السنة الطويلة التي كان يتخلل العمل فيها التمرين واللعب.

إن تفاصيل تلك الأشهر ليست مهمة الآن، ولكنني لا بد أن أقول، ببساطة، بأنني وجدت طفلتي تستطيع أن تتعلم قراءة جمل بسيطة، وأنها كانت قادرة على كتابة اسمها، ولو بعد جهد كبير، وأنها أحبت الأغاني وكانت قادرة على أداء بعض الأغاني البسيطة. ولم يكن ذلك بمهم في ذاته، ولكنني أعتقد بأنها ربما كانت قادرة على أن تتقدم أكثر من هذا. ولكن ظهر لي في أحد الأيام، وكنت أضطرها وأحثها دائمًا بأسلوب رقيق، ولكنه مستمر ثابت، وربما اتخذ هذا الأسلوب في حالات هياجي شكلًا قاسيًا لا رحمة فيه، حين كنت أمسك بيدها لتتابعني في كتابة كلمة من الكلمات وهي ندية بالعرق، ومن ثم تناولت كلتا يديها وفتحتها فوجدتهما مبتلتين. لقد أدركت حينذاك أن طفلتي كانت تعاني توترًا وانقباضًا شديدين، وأنها كانت تبذل قصارى جهدها من أجل الاستجابة لرغبتي في تحقيق أمر لم تكن تدرك منه شيئًا، وأنها كانت مدفوعة لذلك برغبة ملائكية في أن تسرني وترضيني، وأنها في الواقع لم تكن لتتعلم شيئًا.

وأحسست أن قلبي قد تصدع وتحطم مرة أخرى، فنهضت، وأنا أتمالك نفسي، ووضعت الكتب جانبًا على ألا أعود إليها

أبدًا، إذ لا فائدة من دفع عقل هذه الطفلة إلى ما وراء الحدود التي يستطيع أن يعمل ضمنها. أجل إنها قد تستطيع أن تقرأ قليلًا بعد بذل جهد كبير معها في هذا الباب، ولكنها مع هذا لن تستطيع أبدًا أن تلتذ بقراءة الكتب. إنها قد تتعلم كتابة اسمها ولكنها لن تجد أبدًا في الكتابة وسيلة من وسائل النقل والتبليغ. نعم إنها كانت تصغي إلى الموسيقى فرحة مبتهجة، ولكنها لا تستطيع أن تقوم بأداء الموسيقى. ومع هذا كله كانت طفلتي بشرًا، وكان لها حق في أن تكون سعيدة بأن تكون قادرة على أن تعيش وتحيا، بحيث تستطيع أن تعمل في حدود قابلياتها.

قلت لها يومًا: «هيا بنا نذهب خارجًا ونلعب مع القطيطات».. فاكتسى وجهها الصغير مسحة فرح مفرط على إثر هذه الدعوة، وكانت تلك مكافأتي.

لقد صممت الآن على أن نعيش في جو سعيد. ولكني يئست من كل أمل فيها وكل فخر واعتزاز بها. وقبلتها كما هي تمامًا غير متوقعة منها شيئًا، وصرت أصبح شاكرة ممتنة فيما إذا لاح بعض الإشراق في ظلام عقلها. إن المكان الذي تستطيع أن تكون فيه أسعد ما يمكن، هو الذي يجب أن يكون مأواها. لقد احتفظت بها معي حتى بلغت من العمر تسع سنين، ثم أخذت أبحث عن مأواها النهائي.

الفصل الثالث

وعدت إلى بلدي كأنني غريبة عنه. ولم يكن ذلك مجديًا بالنسبة لي، حيث لم يكن لي أصدقاء يرشدونني، وليس هناك من يعرف ما كنت أحتاج إليه أو كيف يساعدني. ومع ذلك فقد كان في شعوري بالغربة شيء من النفع والفائدة أيضًا. وكنت أعرف ما أريد، وقد تعلمت من حياتي بين الصينيين أن أبحث عن الجوهريات- أعني الصفة الإنسانية- وكنت صممت على ألا أقيس ما أنا بسبيله على أساس المادة وحدها، فإذا كان المحل الملائم لها يكلف كثيرًا، فلا بد لي أن أ جد طريقة ما تمكنني من أن أدفع هذه النفقات، فقد كنت شابة، وكنت قوية، كما أنني قد ربيت تربية صالحة. وبهذه المزايا الثلاث استطعت أن أعد ما تحتاج إليه طفلتي من تكاليف.

وتعلمت كثيرًا في السنة التالية، ولقد وجهتني تلك السنة اتجاهات متعددة حقًّا، فكانت عندي قائمة طويلة بالمدارس والمؤسسات التي تحقق بغيتي، وكنت أسأل عن أخرى غيرها حيثما ذهبت. إن كل تفاصيل ذلك البحث الاستقصائي قد لا يكون ذا جدوى، ولكن قد يكون من المفيد لأولئك الذين يجب أن يقوموا بمثل هذا البحث أن يعرفوا بعض الأشياء المعينة.

فقد تعلمت أولًا وقبل كل شيء، ألا أحكم على المؤسسة بما يتيسر فيها من لوازم وساحات، فقد كانت بعض المدارس التي هي مثل أعلى في تأثيثها ولوازمها، أسوأ المدارس من حيث ما يتعلق بالأطفال. ولا أزال أتذكر إحدى هذه المدارس، فقد قضيت مع رئيسة المعنيات بها اليوم كله. وأرتني خلال ذلك اليوم كل تفاصيل الساحات والبيوت المصممة تصميمًا فاخرًا. وكان الأطفال في تلك المدرسة على ما يظهر يغذون جيدًا، وينالون قسطًا جيدًا من العناية. وكان في المدرسة طبيب مقيم، وعالم نفساني مقيم. وكان اللائي يعنين بالأطفال أنيقات باعثات على البهجة. وكانت المؤسسة تحتوي بناية دراسية فاخرة، ومعرضًا فاخرًا للمصنوعات اليدوية التي هي من صنع الأطفال. وكان فيها قسم خاص للموسيقى. وقد أكدت لي رئيسة المشرفات على تلك المؤسسة أن كل المساعي قد بذلت من أجل تنمية الأطفال إلى ذروة إمكانياتهم. وكانت هذه الرئيسة نفسها ذات كفاية، وكانت

نشيطة ولم تكن قاسية. وحاولت أن أتصور ابنتي الصغيرة تترك إلى عناية هذه المرأة، فلم أستطع أن أتوقع نشوء عواطف متبادلة فيما بينهما. وهنا أرجو ألا يعزب عن البال أن رئيسة المشرفات ليست ذات علاقة وثيقة بالطبع مع كل طفل بمفرده. لقد كنت أخذت حقًّا بما كانت عليه تلك المؤسسة كلما استمر النهار إلى درجة أنني بدأت أفكر في الأجور السنوية الباهظة التي يتطلبها انتساب ابنتي إلى مثل هذه المؤسسة الفاخرة، وصرت أضع الخطة لتيسير مثل هذه المبالغ والحصول عليها. وحل المساء فجلست على الشرفة العريضة، ومديرة المدرسة ما زالت معي، أنتظر مرور سيارة الركاب لتقلني من هذا المكان. ولكن طرأ بعد هذا حادث محا كل ما تركه ذلك اليوم في نفسي من إعجاب بهذه المؤسسة.

لقد وقفت سيارة قرب مدخل المؤسسة فنزلت منها فتيات شابات ما زلن في العقد الثاني من العمر، وكن كلهن طفلات في تلك المدرسة، ثم صعدن الدرجات التي كانت أمام المدخل ومررن قاطعات الشرفة التي كنت أنتظر السيارة فيها. وحيت الفتيات الرئيسة كما يجب، وردت هي عليهن التحية، ورأيتها تنظر إليهن نظرًا حديديًّا.

ثم صاحت فجأة: «قفن يا بنات».

فوقفن خائفات مضطربات.

ثم قالت الرئيسة بأسلوبها الواضح الحازم: «كم أخبرتكن أن ترفعن رؤوسكن؟ عدن إلى السلم ثم امشين عبر الشرفة مرة أخرى!».

فأطعنها وهي واقفة تراقبهن.

وعندما دخلن الدار التفتت الرئيسة إليَّ مفسرة ما فعلت تفسيرًا أفرغت فيه رضاها وطمأنينتها: «إنه لجزء من عملي أن أعلم الفتيات كيف يجب أن يدخلن الغرفة، وكيف يجب أن يتركنها. إن ضعيفات العقول يمشين ورؤوسهن متهدلة أمامهن دائمًا- وهو من خصائصهن الملازمة لهن- ومن واجبي أن أجعلهن يقلعن عن مثل هذه العادة».

فسألتها: «ولماذا؟».

فهزت كتفيها وقالت موضحة: «إن هؤلاء الفتيات ينحدرن كلهن من عائلات طيبة، من أناس لهم مراكزهم في المجتمع. إن الوالدين لا يريدون أن يشعروا بالخجل أو العار، عندما يأخذون معهم أطفالهم هؤلاء في تجوالهم». ثم ضحكت ضحكة فيها استهانة واحتقار! «لماذا؟ إنني يجب أن أعلمهن كيف يمسك بعضهن يد بعض عندما يسرن على الجسر، ويظهرن كما لو كن يلعبن».

فسألتها: «ولم تفعلين ذلك؟» فأجابتني بأمانة وصدق: «إنني يجب أن أكسب رزقي».

لقد افترقنا عند هذا الحد من الحوار، وكنت أشعر أنه لا يمكن أبدًا أن أرسل طفلتي إلى مؤسستها الأنيقة. فلقد كنت أبتغي العثور على رجل أو امرأة تفكر أول ما تفكر في الأطفال أنفسهم وقبل كل شيء. إن من الطبيعي أننا كلنا يجب أن نعيش، ولكن المدهش هو: ما أيسر ما يجد المرء العيش، عندما لا يضع العيش أولًا وقبل كل شيء نصب عينيه.

علمتني تلك الخبرة من بعد أن أبحث عن الشخص اللائق الذي يرأس المؤسسة. فقد كنت أعرف أن المستخدمين في المؤسسة لن يكونوا عادة خيرًا من رئيسها. وعليه فالرئيس يجب أن يكون أحسن من فيها. وعقدت العزم على ألا آخذ المظهر المادي الحسن بنظر الاعتبار، وإن كان ضروريًّا أن تكون هناك ساحة للعب وكفاية من ضوء الشمس والهواء النقي. لقد نبذت اختيار المؤسسات الواقعة بعيدًا إلى الشمال من الولايات المتحدة؛ لأن فصل التمتع بالحياة خارج الأبنية قصير عادة. يضاف إلى هذا أن طفلتي قد تعودت الجو الذي يقرب من جو المناطق الاستوائية نوعًا ما، وتعودت اللعب خارج الدار. لهذا بدأت أبحث، بالإضافة إلى المكان الفسيح والحد الأدنى من

النظافة والعناية، عن الناس المناسبين لهذه المهمة، عن أناس يتميزون بالرفق والعطف الإنساني.

وهنا لا بد لي من القول بأنني لما لم أكن مقيمة في بلدي، ولم أنتسب إلى ولاية من الولايات المتحدة، أو أحسب عليها، فلم تكن المؤسسات الحكومية إذن مفتوحة أمامي في يسر وسهولة. يضاف إلى هذا أن في هذه المؤسسات قوائم انتظار طويلة، وأنا وإن كنت قد زرت هذه المؤسسات، فإني وجدتها مزدحمة أكثر من المعتاد، ووجدت الأطفال يعيشون في نظم روتينيات جامدة شديدة. أواه!! كم عانى قلبي من اللوعة على أولئك الأطفال الذين كانوا يملأون الغرف الواسعة جالسين ببلادة وخمول على الأرائك الخشبية، وهم ينتظرون وينتظرون. سألت دليلي يومًا: «ما الذي ينتظره هؤلاء الأطفال؟» فأجابني الدليل في شيء من الدهشة والاستغراب: «إنهم لا ينتظرون شيئًا». ثم أردف قائلًا: «إنهم جالسون فقط. إن هذا هو كل ما يريدون أن يعملوه». فسألته: «ومن أين لك أن تعرف بأنهم لا يرغبون في أن يقوموا ببعض الأشياء الأخرى غير الجلوس؟» ولكنه تجاهل السؤال وتجنبه قائلًا: «إننا نوقفهم مرتين في اليوم من جلوسهم هذا ليسيروا حول البناية». ولكنني أعلم أن الأطفال كانوا في الحقيقة ينتظرون... إنهم كانوا ينتظرون حدوث شيء سار مبهج. وربما كانوا لا يدرون بأنهم كانوا ينتظرون، ولكنهم في الواقع كانوا ينتظرون، إنني أعرف

الآن أن ليس هناك من عقل يكون بليدًا مظلمًا، بحيث لا يستشعر الألم واللذة... إن هؤلاء الأطفال كائنات بشرية، وكنت أرى أن هذه الحقيقة هي أهم شيء يجب أن يدرك في هذا الصدد، ولكن الكثيرين من هؤلاء الذين كانوا يعنون بهؤلاء الأطفال، لم يدركوا هذه الحقيقة. إن الأطفال الذين لا ينمون هم كائنات بشرية، وهم يعانون من المشاعر ما تعانيه الكائنات البشرية الأخرى، وإن كانت مشاعر أولئك مشاعر غير مترابطة، ولكنها مع ذلك عميقة. والكائن الإنساني دائمًا أكثر من مجرد حيوان.

هذا أمر يجب ألا نغفله أو ننساه، إن الإنسان هو دائمًا أكثر من حيوان. ومع أن هذا الإنسان قد يفقد عقله، وقد لا يستطيع الكلام أو الاتصال بأحد، إلا أن العنصر الإنساني لا يزال فيه، ولا يزال هو عضوًا في العائلة البشرية.

لقد رأيت هذا متمثلًا بشكل مدهش في إحدى المؤسسات الحكومية، عندما زرت لأول مرة المكان الذي يعد موطنًا للهول والفزع، فقد كان الأطفال- وبعضهم صغير في جسمه وبعضهم كبير، على ما يظهر- من غير عقول إطلاقًا. لقد قدر معدل العمر العقلي لهم بأقل من سنة واحدة. لقد حشر هؤلاء الأطفال بعضهم مع بعض كما تحشر الجراء. كانوا يرتدون ثيابًا تشبه الأكياس مصنوعة من «البفتة» الخشنة أو «الخيش». أما الطعام فكان يوضع

لهم على الأرض فيلتهمونه التهامًا، ولم يبذل أي مجهود لتعليمهم عادات التبرز، والأرض من الأسمنت تغسل مرتين أو ثلاث مرات في اليوم، أما الفراش فكان عبارة عن مجموعة قذرة من الحصر مفروشة على الأرض. وكانت هناك إيضاحات، بالطبع. فقد أخبروني بأن هؤلاء الأطفال لا يمكن أن يتعلموا شيئًا أبدًا، وأنهم إنما يوجدون على هذه الحال حتى يموتوا. والذي ساءني أكثر من أي شيء آخر، أنه لم يكن هناك شيء من الجمال في أي مكان من المؤسسة، لا شيء يتمتع الأطفال بالنظر إليه. لا شيء يدعو الأطفال إلى أن يرفعوا رؤوسهم نحوه، أو يمدوا أيديهم إليه.

وبعد عدة سنين عدت فزرت هذه المؤسسة مرة أخرى بعد أن سمعت أن هناك رجلًا جديدًا يتولى إدارتها، رجلًا شابًّا كان يختلف عمن سبقوه. وقد وجدت حقًّا أنه يختلف عمن أشرفوا على هذه المؤسسة من قبل، ولهذا أصبحت المؤسسة كلها تختلف عما كانت عليه. أجل، كانت مزدحمة كما كانت من قبل ولكنها تغيرت تغيرًا تامًّا. كانت أشبه ببيت. فقد كان فيها ستائر أنيقة على النوافذ، وقد غطيت الأرض باللينوليوم البراق. أما الأطفال فقد وزعوا على الغرف بحيث كان الأطفال الصغار مع أمثالهم، ووضع الأطفال الكبار مع الأطفال الكبار. كما زودت بكراسي وأرائك كان الأطفال يجلسون عليها. وكانت في النوافذ أزهار وورود وعلى الأرض لعب ودمى. وكان الأطفال نظفاء يرتدون

ملابس جميلة. أما الرائحة الكريهة فقد انعدمت. ووجدت غرفة طعام فيها موائد عليها صحاف وملاعق وأكواب.

وسألت الشاب: «هل الأطفال الآن من درجة أعلى من الدرجة التي كانوا عليها من قبل؟».

فأجاب وهو يبتسم: «لا.. إن كثيرين منهم هم أولئك الأطفال أنفسهم الذين شهدتهم من قبل».

«ولكنهم أخبروني أنهم لا يمكن أن يتعلموا».

فأجابني:

«إنهم جميعًا يمكن أن يتعلموا شيئًا ما، وعندما لا يستطيعون أن يتعلموا وحدهم يساعدهم في ذلك أي شخص».

ثم أراني الأشياء التي عملها أولئك الأطفال،و هي وإن كانت في الواقع سلالًا وسجاجيد صغيرة بسيطة ذات أخطاء كثيرة، إلا أنها كانت أعمالًا مدهشة في نظري. وكان الأطفال الذين قاموا بصنعها فخورين بما قاموا به. لقد أتوا إلينا، فهم على الرغم من عدم استطاعتهم الكلام، إلا أنهم يعرفون ما فعلوه.

وسألته: «هل ارتفع عمرهم العقلي؟».

فأجاب: «لقد ارتفع قليلًا بوجه عام، ولكن العمر العقلي ليس هو المعول عليه معهم- أو مع أي شخص آخر من هذا القبيل».

ثم سألته: «كيف قمت بهذا؟».

فأجاب ببساطة: «إنني أعاملهم على أنهم بشر».

وانتهى بحثي في مكان آخر حيث وجدت شخصًا آخر كهذا الشخص الذي ذكرته. فدون أن أنظر إلى المباني أو الأرض، عرفت عندما دخلت المكتب وصافحت الرجل الهادئ ذا الشعر الرمادي الذي حياني بصوت رقيق، أنني قد وجدت ما كنت أريد. وأنا بالطبع لم أقرر رأسًا، ولكنني أخبرته بأمر طفلتي وما كنت أبتغيه وأنشده، وكان هو يصغي إليّ. وكان هناك بعض الشيء في طريقة إصغائه إليّ، فقد كان عطوفًا يشاركني في مشاعري ، ولكن من غير جهد. فلم يكن متحمسًا وقال لي بلغة غير الواثق إنه لا يدري ما إذا كنت سأرضى بمدرسته؟ ولكن لا بأس من أن نطوف بالمدرسة لنرى. وعلى هذا طفنا بالمدرسة، ولاحظت أن وجه كل طفل كان يشرق عندما يدخل هذا المدير غرف الأطفال، وأن الأصوات كانت تتعالى بتحيتهم إياه ومناداتهم باسمه: «العم آد»، وهكذا كانوا يدعونه به. وقد أمضى بعض الوقت في اللعب معهم، وإن كان يدعهم يتعلقون بركبتيه يضمونهما إليهم وينظرون في جيوبه، حيث كانت فيها قطع صغير من «الشيكولاتة»، قطع صغيرة جدًّا بحيث إنها غير كافية لأن تضعف شهية الطفل. وكان هو يعرف كل طفل، وكانت عيناه النافذتان تلاحظان كل شيء

أينما كان. لقد حيّا المشرفات بلطف وأدب. وكان عندما يتقدم باقتراح- من قبيل أن «جيمي» مثلًا يجب أن يعطى كرسيًّا صغيرًا ليجلس عليه، ولذلك يجب أن تقصر أرجل الكرسي الذي يحبه «جيمي» أكثر من غيره من الكراسي، بحيث يصبح مناسبًا له وملائمًا- تسارع المشرفة إلى الموافقة عليه.

لقد كانت المباني مبهجة ومناسبة، ولكنها لم تكن تقريبًا بجمال بعض البنايات التي رأيتها من قبل. وكان جو المؤسسة، كما وجدته، جو لطف وحنان وحرية وصداقة، فقد رأيت الأطفال يلعبون في الساحة خلف بيوتهم الصغيرة، يعملون أقراصًا من الطين ويتصرفون كما لو كانوا في بيوتهم. ولقد رأيت عبارة معينة قد أعيدت مرارًا متعددة على جدران المؤسسة وعلى لوحة معلقة فوق مكتب المدير نفسه، إن تلك العبارة هي: «السعادة أولًا ومن ثم يأتي كل شيء آخر».

وابتسم المدير عندما رأى عيني مركزتين على كلمات تلك العبارة، فقال معلقًا: «إن هذا ليس مجرد أمر عاطفي... إنها ثمرة تجربة. فقد وجدنا أننا لا نستطيع أن نعلم الطفل شيئًا، إذا كان عقله وقلبه متحررين من الشقاء، فالطفل الوحيد الذي يمكنه أن يتعلم هو الطفل السعيد».

لقد كنت أعرف الكفاية من شئون التعليم، مما يمكنني أن

أدرك أن هذا هو المبدأ السليم في كل تربية. فكان ذلك مطمئنًا لي وباعثًا في الثقة بأن هذا المبدأ حجر الزاوية الذي شيد عليه كل شيء آخر في المؤسسة. وهنا قلت لنفسي إنني لن أستمر في البحث أكثر من هذا.

وفي يوم من أيام سبتمبر «أيلول» جئت بابنتي إلى هذا المحل الذي وجدته، فمشينا معًا نتجول في المؤسسة؛ لأعودها الملاعب الجديدة والساحات، وذهبت معها إلى الزاوية التي فيها فراشها. وقابلت المرأة التي ستشرف عليها، كما واجهت ناظرة البنات، ولكن طفلتي تعلقت بي شادة يدي بقوة وأنا شادة على يديها بقوة. ما الذي جرى في عقلها الصغير؟ ذلك ما لم أعرفه، ولكني أعتقد أن هناك شيئًا ما كان يدفعها إلى التشاؤم، ذلك أننا لم نفترق- أنا وابنتي- قط، أما الآن فقد حان الوقت الذي يجب أن يكون فيه فراق- وهو فراق نهائي كالموت تقريبًا. نعم قد آتي لأراها غالبًا، وتستطيع هي أن تأتي حينًا لتراني، ولكن مع هذا سيكون الفراق موجودًا على كل حال. إن علينا أن نفترق، وأنا وإن كنت أعتقد بأن الأفضل لسلامتها أن تجد لها مأوى دائمًا ثابتًا هنا، ولكن الحقيقة التي تنطوي على أنها ستحتاج إلى مأوى طيلة حياتها، كانت هي القسوة الأولى من نوعها.

وفي عصر ذلك اليوم الذي كان مفزعًا بمروره، طلب إليّ

المدير أن آتي إلى قاعة الاجتماع. وكان على الأطفال كلهم أن يجتمعوا هناك لسماع بعض الموسيقى. وبطريقته اللطيفة رجاني أن أجلس على المنصة معه، وأن أتحدث إلى الأطفال بضع دقائق عن الأطفال الصينيين، فسيفهم بعضهم، على ما قال لي، ما أتحدث به.

إن هناك بعض اللحظات التي تبلور في لحظة واحدة مغزى سنين من الحياة، إن مثل هذه اللحظة قد حضرتني عندما وقفت على المنصة في تلك القاعة، ورأيت أمامي مئات من وجوه الأطفال وهي تتطلع إليَّ. أي كرب يكمن وراء كل وجه من هذه الوجوه، كم سنة من سنى الألم، وأي دموع، وأي يأس مخيف مفزع وقنوط؟ إنهم هنا طيلة حياتهم، إنهم سجناء ما قدر لهم، وبينهم، واحدة منهم، ستكون طفلتي من هنا وإلى الأبد.

لا بد وأن الرجل العطوف، الذي وقفت إلى جانبه على المنصة، قد أدرك بعض ما شعرت به آنذاك، فحينما رآني لا أستطيع الكلام، قام بسرد قصة صغيرة فجعل الأطفال يضحكون، ومن ثم استطعت أن استمر في الكلام ثانية. أعتقد أنني لم أحاول قط أن أسر سامعين بقصد وإخلاص كما حاولت في تلك الآونة، كما أنني لم أفرغ نفسي كلها من صميم قلبي في أي جهد قمت به، كما فعلت في نصف الساعة الذي تحدثت فيه إلى أولئك الأطفال. ولم أستطع

أن أكشف لهم ما كان في قلبي. ولم أستطع أن أخبرهم بأنني أدرك حياتهم أكثر من إدراكي أي شيء آخر؛ لأنني قد خبرت مثل هذه الحياة. وكان عليَّ أن أخبرهم بأشياء بسيطة يستطيعون فهمها وإدراكها، وكان جزائي عن ذلك الحديث ضحكهم الخالص.

وبعد أن أنهيت حديثي، انتحى بين المدير ناحية، وكلمني في لطف وحنان ومواساة. ولن أنسى كلماته ما حييت، فقد قال لي: «يجب ألا يعزب عن بالك بأن هؤلاء أطفال سعداء وأنهم هنا آمنون، وأنهم سوف لا يعرفون الضيق والكرب والحاجة أبدًا، وأنهم لن يفقهوا النضال والسعي أو الاندحار أبدًا، كما أن الأسى لن يمسهم أبدًا. لا تطلب منهم مطالب صعبة لا قبل لهم بها. وإن الأفراح والمسرات والمباهج التي يحبونها ميسرة لهم. وإن طفلتك ستتخلص من كل ما تقاسيه وتعانيه من متاعب وشقاء. أرجو أن تتذكري هذا كله، وأن تكون فيه لك راحة وطمأنينة. تذكري أن هناك ما هو أسوأ من هذا اليأس الذي تعانيه، إن من هذا اليأس اللعين أن يرى المرء شخصًا حبيبًا إليه يقاسي شدائد الحياة، وهو غير قادر على مساعدته على التخلص منها، ولن يكون هذا النوع من اليأس والقنوط من نصيبك أبدًا».

كم من مرة كنت، منذ ذلك الحين، أفكر في طفلتي وأتذكرها، ويكاد اليأس يطبق على رأسي، فأتذكر تلك الكلمات الرقيقة

الحكيمة، وما دامت طفلتي سعيدة، أفلم أكن قوية إلى الحد الذي يمكنني من احتمال ما يجب أن يحتمل؟

لقد تركتها هناك ولم أزرها طوال شهر- محققة رغبة المدرسة في ذلك- لقد كان المدير يعتقد أن شهرًا كاملًا ضروري لأن تمتد وتتمكن جذور جديدة في هذا الصدد. وأن رؤية الوالدين تعيق وتؤخر هذه العملية الضرورية للتوفيق بين الطفل وبيئته الجديدة. ولقد وعدني بأنهم سيخبرونني عما إذا لم تجر الأمور على ما يرام. ولذا فقد تحملت الأسى الذي مزق نفسي مبتعدة عنها تاركة إياها لأول مرة في حياتنا.

لا أرى بي حاجة إلى أن أتحدث عن ذلك الشهر، فكل أب أو أم مثلي تدرك الشكوك التي ساورتني، فإن ترك طفلة لا تستطيع أن تكتب رسالة، ولا أن تعبر بالكلمات عما تشعر به وتحتاج إليه، بدا لي في بعض الأوقات أنه ذروة القسوة. ولقد كانت تواتيني هذه الأفكار في الليل، ولم تحل دون إسراعي لركوب القطار إليها من أقرب محطة، إلا فكرة المستقبل الذي تكون فيه طفلتي قد كبرت وأكون أنا حينذاك ميتة.. آه.. إن هناك عديدين ممن يعرفون مثل هذه الساعات التي يمر بها المرء ليلًا.

لعل من السار أن أقول إنني عندما عدت إلى المدرسة في نهاية الشهر وجدت الطفلة سعيدة وبخير. ولكن هذا لم يكن

صحيحًا، فقد أعاد وجهها الصغير المكروب، ولهجتها التي كانت تثير العطف والشفقة حين رأتني، كل الشكوك والريب عندي مرة أخرى، بحيث كنت على وشك أن أجمع لوازمها في حقيبتها وأعود بها إلى البيت.

كانت رئيسة الممرضات المسنة واقفة تنظر إلينا. وقالت في خطورة: «لقد كانت مأفونة تمامًا.. لم ترد أن تقوم بما كان يقوم به الأطفال الآخرون، وكانت تبكي كثيرًا. وقد اضطررنا إلى التفاهم معها».

فقلت مستنكرة: «التفاهم معها؟».

«نعم فهي إذا هربت إلى خارج البيت، كان علينا أن نردعها».

فهمهمت قائلة: «إنها تعودت الحرية، ولقد كانت بالطبع تجري إلى خارج البيت لتبحث عني».

فقالت المشرفة: «إنها لا يمكن أن تجري إلى خارج البيت وحدها، يجب أن تتعلم أن تطيع، فإذا هي تعلمت هذا، فستصبح سعيدة كالآخرين».

لقد كان الاحتجاج قويًّا يتحشرج في حلقي، ولكني حبسته ثم قلت: «سآخذها لنتمشى معًا قليلًا».

وإذ كنا خارج البيت وحدنا، عادت فرحة جَذْلَى كالهزار

مرة أخرى، ولكنها كانت تشد على يدي، كما لو كانت تحاول ألا تدعها تفلت أبدًا. لقد ذهبت أفتش عن المدير وكان هناك في غرفته، فرحب بي وتحدث مع طفلتي. وكان يبدو عليها أنها تعرفه ولا تخشاه، ومعنى هذا أنه كان يرعاها بنفسه.

وقلت في الحال: «أعتقد أنني لا أستطيع أن أتركها هنا؛ لأن التي تشرف عليها تقول إنهم اضطروا لأن يردعوها، مهما يكن معنى هذا الردع. إن من المؤكد أنهم يدركون أن طفلة صغيرة كهذه لا يمكن أن تكون فرحة سعيدة فجأة خارج البيت الذي عاشت فيه دائمًا. إنها لم تتعود أن تحيا أبدًا بين غرباء. ولا تستطيع أن تدرك سبب هذا التغير. أفيجب أن يرغم الأطفال على الحياة «الروتينية؟»، أو هل يجب أن يسير الأطفال في صف إلى غرفة الطعام مثلًا؟

قلت هذا كله وأكثر منه. وقد أفسح لي المجال أن أقول كل ما أردت قوله، في حين أن عينيه كانتا تعطفان علينا.

وقال عندما فرغت من كلامي: «ليس من الممكن أن تحيا طفلتك هنا كما كانت تحيا في البيت تمامًا. إن طفلتك هنا واحدة بين أطفال عديدين، أجل إنها سيُعنى بها وحدها وستُرعى وتُعلم، ولكنها لا يمكن أن تسلك كما لو كانت هي الطفلة الوحيدة هنا؛ لأن ذلك يعني شيئًا من فقدان الحرية بالنسبة لها. إن هذا الخسران يجب

أن تَزِنِيْه بما تكسبه الطفلة في هذا الباب. إنها آمنة هنا وهي تتمتع بالرفقة والصداقة، وإذا تعلمت أن تنتظم مع الآخرين في «روتينيات» صغيرة، هي ضرورية في كل عائلة كبيرة، فستجد متعة في شعورها بأنها أحد أفراد الجمهور، فيجب أن تتعلم- كما تعلمين- ويجب أن تطمئني إلى أنها سوف لا تتعلم إلا تلك الأمور التي يمكنها أن تتعلمها، ولن ترغم على أمر ليس في وسعها أن تقوم به.

تصوري ما يمكن أن تصبح طفلتك بعد سنة، أو خمس سنوات بعد اليوم. حاولي أن تري في عدل وإنصاف ما إذا كان هذا المحل هو المحل الصالح كبيت أم لا. أرجو ألا تضيعي فائدة كبرى من أجل سخط عارض بسيط».

فقلت: «إن هذا الأمر صعب؛ لأن طفلتي لا تدرك لم كان هذا كله ضروريًّا لها، أو أنه هو لصالحها».

فأجابني بصوته الرقيق قائلًا: «ليس منا من يدرك ذلك حقيقة. إنك لا تفقهين لم كان من اللازم أن تكون لك طفلة كهذه، على كل حال، ولا تستطيعين أن تري في هذا الأمر أي وجه من وجوه الصلاح والخير».

وأنا لا أستطيع حقًّا.

واستمر المدير في حديثه قائلًا: «إنك لا تستطيعين أن تصوني طفلتك من كل شيء. إنها مخلوق إنساني، وعليها أن تتحمل

قسطها الضئيل، أيضًا، مما هو عام مشترك في الحياة الإنسانية كلها».

وقال أشياء كثيرة أخرى، وقد جلست أصغي وطفلتي جالسة إلى جانبي راضية مطمئنة. وعندما فرغ من كلامه، أدركت أنه قد قام بما كان ينوي القيام به، لقد ساعدني على أن أجد القدرة على التفكير في الخير الأعم والصالح الأكبر لطفلتي.

ثم بقيت معها يومًا واحدًا فقط؛ لأنهم ذكروا أن من الأفضل ألا أبقى طويلًا معها في المرة الأولى؛ ولذا تركتها وذهبت. ولن أنسى ما حييت أنني اضطررت عند مفارقتها إلى أن أدفع ذراعيها الصغيرتين من حول عنقي، وأنني جرؤت على ألا ألتفت إلى الوراء. وكنت أشعر بأن المشرفة كانت ممسكة بها بقوة، كما كنت أدري أنني يجب ألا أرى ذلك؛ لئلا تخونني شجاعتي وجرأتي.

ومرت سنون منذ ذلك اليوم. وجئت لأعيش في أمريكا حتى لا أكون بعيدة عنها، وحتى يتسنى لي زيارتها كثيرًا. وقد اعتادت الآن مجيئي لزيارتها وذهابي عنها، ومع هذا فلا يزال هناك حتى الآن ذلك التعلق القصير بي، عندما أهم بتركها والذهاب عنها. وكانت تهمس في أذني مرارًا: «إنني أريد الذهاب إلى البيت».. إنها تأتي إلى البيت أيضًا، في بعض الأحيان، فتشملها البهجة ويشيع فيها الفرح خلال أيام زيارتها القليلة. ولكن الراحة والطمأنينة اللتين

أشعر بهما اليوم تكمنان في الحقيقة التالية: فبعد أن تمكث في البيت أسبوعًا أو نحوًا من أسبوع، تبدأ بالحنين إلى البيت الآخر. إنها تبدأ بالحنين إلى «البنات» رفيقاتها في المأوى، وتريد بعض اللعب أو الآلات الموسيقية، أو بعض الأسطوانات التي خلفتها وراءها هناك. وتعود أخيرًا إلى المأوى وهي راغبة في ذلك تقريبًا، بعد أن تتأكد وتطمئن إلى أنني سآتي عاجلًا لرؤيتها. لقد انتهى دور الكفاح الطويل، فقد تحقق التكيف لحياتها الجديدة. وصرت إذا عاودتني ساعات الأرق ليلًا، أهدئ نفسي وأطمئنها بأنني إذا حدث أن مت قبل أن أستيقظ صباحًا، على نحو ما تنطوي عليه الصلاة الطفلية القديمة، فإن حياتها ستستمر كما هي من غير تغيير. إن أكثر النقود التي كنت أستطيع الحصول عليها، كانت قد ذهبت في تحقيق هذا الضمان لها. وإني لأشعر بالاعتزاز في هذا الباب؛ ذلك لأنها لن تكون عالة على أحد ما عاشت، عشت أنا أم لم أعش؛ ولأني قمت بكل ما أستطيع أن أقوم به في هذا الصدد.

إنني أدرك أن هناك كثيرين من الآباء والأمهات لا يستطيعون أن يوفقوا كما وفقت أنا في القدرة على تحقيق ضمان حياة الطفل. فبعض هؤلاء الآباء والأمهات يجيئون إليّ بأطفال يشبهون طفلتي، ويسألونني عما يمكن أن يقوموا به في هذا الباب. ثم يخبرونني أن في حيازتهم مالًا قليلًا، أو أن لديهم أطفالًا آخرين، وما في حيازتهم من مال يجب أن يقسم بينهم جميعًا. إن الطفل العاجز

لا يمكن أن يحصل على كل شيء، مهما تقطعت قلوب الوالدين في هذا الصدد. وهؤلاء الآباء والأمهات مصيبون بالطبع، ولأقلها ببرود، إن أمكن ذلك، إن الأطفال الأسوياء هم، على كل حال، أكثر فائدة للمجتمع من الأطفال العاجزين.

ومع هذا، فإنني حائرة في هذا الأمر. فقد علمتني طفلتي العاجزة كثيرًا، علمتني الصبر قبل كل شيء، مع أنني أنحدر من عائلة لا تصبر على الغباوة والبطء. وكنت أشربت، ما كان في عائلتي، من عدم استساغة العقول التي هي أقل حدة وسرعة من عقولنا. وبعد هذا كله أودع في رعايتي أنا وحدي هذا العقل الواهن الذي يستدر الشفقة والعطف، والذي يكافح ويناضل ضد ما لا أعرفه من العراقيل، فهل في وسعي أن أستهين بهذا العقل وأحتقره، لما ليس من خطئه أو تقصيره؟ إن هذا في الواقع يكون غاية القسوة الظالمة. لقد كنت اضطررت، إذ حاولت أن أستخلص قابليتها البسيطة بدافع الحب والإنصاف، أن أتعلم الرفق والعطف والصبر الجميل. ولم يكن ذلك الأمر بسيطًا هينًا دائمًا، فقد كان القلق الطبيعي ينفجر، ويا للخجل! بين حين وآخر بحيث كان يبدو لي أن ليس هناك من جدوى في أن أحاول تعليمها. ولكن العدل والإنصاف كان يجري منطقهما فيَّ على المنوال التالي: «إن لهذا العقل الحق في أن ينال غاية نموه أيضًا. أجل قد يكون ذلك النمو قليلًا، ولكن هذا الحق لا يختلف عن حقك في هذا النمو

أو أي حق آخر. فإذا أنت حرمته حقه في أن يعرف ويدرك حسب طاقته، فقد ارتكبت بذلك خطأ».

وهكذا، على هذه الطريقة المؤلمة، كنت قد أجبرت على المضي، وتعلمت الاحترام والإجلال لكل عقل بشري، وكانت طفلتي هي التي علمتني أن أدرك بوضوح أن الناس جميعًا متساوون في إنسانيتهم، وأنهم جميعًا يتمتعون بالحقوق نفسها، وليس من أحد منهم يجب أن يعتبر أقل، من حيث هو كائن بشري، من أي فرد آخر. كما يجب أن يعطى كل فرد من الناس مكانه وسلامته في العالم. وربما لم يتسن لي تعلم كل هذا أبدًا بأية طريقة أخرى، وربما تماديت مستمرة في زهو تعصبي وعدم تسامحي مع أولئك الذين هم أقل قدرة مني. لقد علمتني طفلتي التواضع.

وعلمتني طفلتي أيضًا أن أعرف أن العقل ليس هو كل المخلوق البشري، فهي وإن كانت لا تستطيع أن تتحدث إليَّ بوضوح، إلا أن هناك طرقًا وأساليب أخرى غير التحدث تستطيع بها نقل الأفكار والعواطف. إنها تتصف بتكامل فوق العادة في شخصيتها. إنها، على ما يظهر، تدرك الخدعة والمكر ولا تجيزهما ولا تتسامح فيهما. إنها طفلة ذات طهر ونقاء عظيمين. إنها لا تستسيغ العادات القذرة، كما أن إدراكها للياقة والوجاهة إدراك كامل لا يعوزه شيء. ولا يجرؤ أحد أن يهاجمها أو يسيء الأدب معها. كما أنها

لا تحتمل القسوة والضيم. وإذا وجدت أحد الأطفال في الحجرة التي تسكن فيها يئن، أسرعت لترى لماذا يئن، فإذا وجدت أن الطفل كان قد ضربه طفل آخر، أو أن المشرفة كانت قاسية خشنة، راحت تصيح وتنادي بأعلى صوتها، ثم تنطلق في البحث عن المربية. إنها معروفة بأنها تدفع المعتدي جانبًا. إنها لا تطيق احتمال الظلم ولا تصبر عليه. لقد قالت لي إحدى المشرفات يومًا وهي تضحك: «علينا أن نعاملها بالحسنى واللطف، وإلا أحدثت لنا متاعب ومشاقًّا».

إن ما أحاول أن أقوله في هذا الصدد هو أن هناك شخصية بكاملها غير ذات علاقة بالعقل، وإن الأطفال الناقصين عقليًّا يعوضون، في الغالب، هذا النقص بصفات خيرة أخرى.

إن هذه الحقيقة مهمة ومتميزة تمامًا. إن علماء النفس الذين يعالجون الأطفال المتخلفين عقليًّا في المدرسة التدريبية في «فاينلاند» «Vineland» من «نيوجيرسي» قد وجدوا أن معامل ذكاء الطفل قد يكون منخفضًا جدًّا في الواقع، ومع هذا فإنه قد ينشط إلى درجة هي أعلى مما يؤهله له ذلك المعامل، وذلك بسبب حسه الاجتماعي وشعوره بالوجه الذي يجب أن يسلك، وباعتزازه بنفسه ولطفه ورقته ورغبته في أن يحب وما إلى ذلك. وعلى أساس هذه الملاحظة كوّن هؤلاء العلماء مقياس النضج

الاجتماعي Social maturity Scale ليكمل «مقياس بنيه» (Binet scale) الذي اقتبس، من قبل، من فرنسا وحور بعض التحوير، ليستخدم في الولايات المتحدة الأمريكية، وما يصدق على الطفل المتخلف يصدق على الطفل السوي أيضًا.. والذكاء العالي قد يكون وبالًا على المجتمع، غالبًا، ما لم ترافقه صفات خلقية تمده بنضج اجتماعي. وعلى هذا الأساس فإن الطفل الذي هو أقل ذكاء من هذا، والذي يتصف بهذه الصفات الخلقية، هو مواطن أفضل من الأول، وهو ينجز في الغالب وحده أكثر من الأول الذي يتمتع بذكاء عال، ولكنه مجرد من تلك الصفات الخلقية.

إن هذا المقياس الذي يسمى مقياس فينلاند للنضج الاجتماعي Veineland Social Maturity Scale شائع الاستعمال اليوم في القوات المسلحة، وفي المدارس والكليات، وفي اختبارات الاستعداد، وحيثما أريد قياس الأفراد الأسوياء. فيجب أن نشكر في هذا الباب الأطفال العاجزين لأنهم هم الذين علمونا أن الذكاء وحده غير كاف.

وعلمنا هؤلاء الأطفال أكثر من هذا بكثير، لقد علمونا كيف يتعلم الناس. إن عقول الأطفال المتخلفين هي عقول سليمة وسوية، إلا أنها- لكونها مقيدة- كانت عملياتها بطيئة، وإن هؤلاء الأطفال يتعلمون بنفس الطرق التي تتعلم بها العقول السوية، غير

أنهم يحتاجون إلى الإعادة والتكرار أكثر مما يحتاج إليه الطفل السوي. لقد استطاع علماء النفس الذين شاهدوا هذه العمليات البطيئة أن يكتشفوا كما هي الحالة في الصور السينمائية البطيئة تمامًا، الطريقة التي يكتسب بها الكائن الإنساني المعرفة الجديدة والعادات الجديدة... وأساليبنا التربوية التي نتعهد بها الأطفال الأسوياء قد تحسنت كثيرًا مما تعلمناه من الطفل المتخلف.

لقد كنت أستشعر الراحة والطمأنينة مرارًا وتكرارًا خلال السنين التي مرت منذ قدت طفلتي إلى عالمها الخاص بها، أقول كنت أجد الراحة والطمأنينة؛ لعلمي أن حياة طفلتي مع الآخرين كانت ذات فائدة في توسيع دائرة معرفتنا في هذا الصدد. وعندما يتعلم الإنسان كيف يقبل الأسى الذي لا مفر منه، يتعلم أيضًا كيف يجد الراحة والطمأنينة في أثناء ذلك.

وأنا حين أتحدث عن الراحة والطمأنينة، أفكر الآن في الوالدين الآخرين غيري، أفكر في أولئك الذين يأتون بأطفالهم يسألونني عما يجب أن يفعلوه لهم. يكاد يكون السؤال الأول الذي يسألونه هو: «هل المدارس والمؤسسات الخاصة أفضل بكثير من المدارس والمؤسسات الحكومية، بحيث يجب علينا أن نكرس كل التضحية العائلية إلى أقصى حد ممكن، من أجل فرد من أعضائها؟».

وكنت أجيب عن مثل هذا السؤال: «إن المدرسة الخاصة الجيدة عادة أفضل من المؤسسة الحكومية المتوسطة؛ لأن الأولى أقل احتشادًا من الثانية، وأكثر اهتمامًا بكل فرد وعناية به. ولكن حتى هذا يتوقف نوعًا ما على الولاية. فهناك ولايات تكون فيها المؤسسات جيدة جدًّا، وتدفع للموظفين فيها أجورًا جيدة، ويكون فيها نظام قائم للمعاشات، وتبذل فيها كل المساعي للإبقاء على أفضل الموظفين. في حين أن هناك ولايات أخرى تكون فيها المؤسسات أشبه بمؤسسات العصور الوسطى. ولذا فإن على الوالدين أن يتفحصوا مؤسسات الولاية التي يقيمون فيها. فإذا كانت هناك موارد عائلية كثيرة ميسرة لدى العائلة، فإن المؤسسة الخاصة الجيدة أفضل وأنفع في هذا الصدد. ومع هذا فإن الضعف والنقص في أكثر هذه المؤسسات الخاصة أنها لا تستمر في الغالب بعد حياة الشخص الذي أسسها. فقد تغلق بعض المؤسسات الخاصة أبوابها عندما يموت رئيسها، وتكون النتيجة أن يتفرق الأطفال وأن ينظر في تصريفهم مرة ثانية. ولذا كان جوهريًّا في انتقاء مأوى لطفلك أن تجد المؤسسة التي لا يتوقف وجودها على رجل واحد، ولكنها تدار من قبل هيئة من الأمناء، ولها منح مالية وهبات، تستطيع أن تمدها وتديمها خلال السنين الصعاب. إن المؤسسات الحكومية بالطبع ذات فائدة كبرى من حيث إنها ثابتة دائمًا، ومن حيث إن الطفل إذا دخلها فهو

آمن مطمئن طيلة حياته.

إنني أجيب الوالدين قائلة: إذا كان إلحاق الطفل المتخلف بمؤسسة خاصة يؤدي إلى تضحية قاسية تصيب كل عضو من أعضاء العائلة من أجل عضو واحد منها، فإنني أحبذ عندها إيجاد مؤسسة حكومية جيدة، حتى ولو كلفني ذلك نقل سكني إلى ولاية أخرى، حيث أودع طفلي هناك.

ما هي المسئوليات الأخرى الملقاة على عاتق الوالدين، بعد أن يودع الطفل إيداعًا سليمًا في مأواه الجديد؟ إن هذه المسئوليات عديدة، ذلك أن الطفل يحتاج إلى الأبوين بعد إيداعه في المؤسسة، كما كان يحتاج إليهما قبل ذلك. لهذا يجب أن تكون هناك زيارات منتظمة متكررة جهد الإمكان، ويجب ألا يتبادر إلى ذهنك أن الأطفال لا يفقهون هذا الوجه من العلاقة، فعليّ إذن أن أتحمل لحظات انكسار قلبي كلما أذهب لزيارة طفلي، إذ لا بد أن طفلة صغيرة أخرى تأتي فتتناول يدي وتنعطف عليَّ وتسأل: «أين أمي أنا؟» ثم تهمس المربية أو رئيسة المشرفات على المأوى من فوق رأس تلك الطفلة قائلة: «هذه المخلوقة الصغيرة المسكينة لم يأت أهلها لرؤيتها أبدًا.. لقد جاءت جدتها لأمها لتراها منذ سنتين، وكان تلك الزيارة آخر زيارة».

إن قلب هذه المخلوقة الصغيرة يتحطم ببطء، ذلك أن هؤلاء

الأطفال هم أطفال دائمًا. إنهم محبون متوددون ويحنون لأن يحبوا كما يحن جميع الأطفال. إن هناك أطفالًا آخرين يأتون ليخبروني وعيونهم مشرقة وضاءة: «لقد جاء بابا وماما في الأسبوع الماضي لرؤيتي!» حتى أولئك الأطفال، الذين لا يستطيعون أن يتكلموا، يأتون ليروني لعبة جديدة جاء بها إليهم والدوهم.

وعلى هذا فهم يدركون لأنهم يشعرون! إن العقل، على ما يظهر، ذو أثر جد قليل في قابلية الفرد أن يشعر.

أما مسئولية الوالدين الثانية، فهي ملاحظة ومراقبة الشخص المسئول عن الطفل مباشرة مراقبة دائمة. لقد قلت إنني اخترت البيت الدائم لطفلتي لوجود رئيس في المؤسسة كان يمكن أن أثق فيه... أما اليوم فلو أنني أردت أن أختار محلًا لابنتي من جديد، إذن لزرت كل بيت ولتفحصت نموذج المشرفة هناك. فإذا كانت هؤلاء المشرفات من نوع المحترفات ذوات الوجوه القاسية، ممن ينتقلن من مؤسسة لأخرى، ويتسمن بالخشونة والقساوة والغلظة، أو من اللاتي لا يتحرجن من ضرب الطفل الذي لا ينصاع، فإنني سأنبذ ذلك المكان؛ لأن أهم شخص في المؤسسة من هذه المؤسسات بالنسبة للطفل وللأبوين أيضًا ليس هو المدير أو المنفذ، كما أنه ليس الرجل أو المرأة التي تنحصر مهمتها أو مهمته في الدائرة التي يشغلانها، كما وأنه ليس

هو الطبيب النفساني أو المعلم، بل هو المشرف أو المشرفة، وإليهما تترك مهمة العناية المباشرة بالطفل.

إن المشرف القاسي الأناني الذي لا يستشف بقلبه سعادة الطفل وخيره، يستطيع أن يقضي على كل جهود المعلم والعالم النفساني... تلك الجهود المكرسة لتحسين حالة الطفل. إن طفلك لا يمكن أن يستفيد من أي تعليم ما لم يكن سعيدًا في حياته اليومية التي يحياها في بيته. إن المشرف يجب أن يكون شخصًا ذا عطف، محبًّا للطفل، قادرًا على ضبطه وتربيته، دون استعمال قوة بدنية، وأن يكون مسيطرًا على الأطفال، قادرًا على ضبطهم؛ لأنهم يحبونه، وليس من المهم أن يكون هذا المشرف متعلمًا أو لا، ولكن يجب أن يفهم الأطفال؛ لأنهم في رعايته دائمًا.

يجب أن تحاط إدارة المؤسسة علمًا بكل ما يبدو من المشرفين من أمارات القسوة والظلم أو الإهمال. أرجو ألا تظن أن الرشوة الخفية أو المنح والهدايا ستصون طفلك من سوء معاملة المشرف الرديء... فإن مثل هذا المشرف سيأخذ ما يعطاه من دراهم ومنح، حتى إذا خلا بالأطفال، كما هي حالته أكثر الوقت، فسيعامل طفلك كما يعامل الآخرين تمامًا.

أما المسئولية الثالثة التي هي في عنق الأبوين نحو الطفل المودع في مؤسسة، فهي أن يتأكدوا من أن الجو الذي يحيا فيه

ذلك الطفل جو فيه أمل ورجاء. لقد لاحظت أن هذا الجو متيسر على أحسن ما يكون في تلك المؤسسات التي تقوم بالبحث العلمي، كمهمة من مهامها... أما المكان الذي تكون فيه العناية من قبيل أن يكونوا قوامين على الطفل وحسب، فهو محل لا بد وأن يكون ميتًا، حيث تكون الحياة فيه رتيبة على وتيرة واحدة. ولا يكفي مجرد العناية بالطفل وحفظه من الأذى، فإن حياته مهما تكن بسيطة تعني معنى ما. إذ إن هذا الطفل لا بد أن يكون عنده ما يستطيع أن يقدمه، حتى ولو كان عاجزًا... إن هناك أسبابًا للحالة التي هو عليها وعللًا قد تكتشف. فإذا كان هو نفسه لا يمكن أن يشفى أو يتغير، فإن آخرين قد يولدون سليمين أصحاء بفضل ما يمكن أن يعلمنا إياه هذا الطفل، وإن كان هو لا يدري من أمره شيئًا.

إن المدرسة التدريبية في «فاينلاند» مثل رائع على ما أعني، ذلك أنها قد أدامت خلال سنوات عديدة قسمًا نشيطًا خاصًّا بالبحث. كما أنها كانت المؤسسة الأولى، كما سبق أن أشرت إليه من قبل، في هذا القطر من حيث استخدام وتكييف اختبار بينيه **Binet** كما أن في هذه المؤسسة ذاتها قد تطور مقياس النضج الاجتماعي **Social maturity Scale**، إن جهود هذه المؤسسة فيما يختص بالأطفال الذين يصابون بضرر عند الولادة- وخاصة الشلل الدماغي- جهود مشهورة مرموقة، يضاف إلى هذا أن

الرجال والنساء النشيطين الذين قضوا أعمارهم في هذه المؤسسة يتعلمون من الأطفال- في سبيل أن يدركوا معرفة أفضل من ذي قبل- ما يمكنهم من وقاية الطفل أو شفائه من مثل هذه العلل، كانوا قد أشاعوا في حياة المؤسسة وفي موضوع النقص العقلي كله من بعد ذلك حيوية ونشاطًا.

وهنا أقول إن الآباء والأمهات قد يجدون راحة وطمأنينة في معرفتهم أن أطفالهم ليسوا عديمي النفع، بل إن حيواتهم، على ما فيها من قصور، حيوات ذات قيمة مهمة عظيمة للنوع الإنساني. فنحن نتعلم من الأسى بمقدار ما نتعلم من الفرح، ومن المرض بمقدار ما نتعلم من الصحة، ومن الضرر بمقدار ما نتعلم من النفع، وقد نتعلم أكثر من ذلك في الواقع. فالروح الإنسانية لم تبلغ دائمًا ذروة سموها بسبب الشبع والرخاء، ولكنها في الغالب حققت ذلك بالحرمان... ولا يعني هذا أن الأسى خير من السعادة، وأن المرض خير من الصحة، وأن الفقر أفضل من الغنى، ذلك أنني لو خيرت إذن لاخترت ألف مرة أن تكون طفلتي سليمة صحيحة، وأن تكون اليوم إنسانة سوية تحيا حياة امرأة. إن ما أفتقده إلى الأبد هو الشخص الذي لا تستطيع أن تكونه أبدًا. لست متنازلة أو منهزمة، ولن أكون كذلك أبدًا؛ لأن العجز أو التسليم أمر جامد ميت، وهو قبول خامل لا يؤتي ثمارًا. ولكنني على العكس من هذا، متمردة ثائرة على القدر المجهول الذي أطاح بها حينًا فأوقف

نموها. إن مثل هذه الأمور يجب ألا تكون، هذا ولأنها قد حدثت لي، لأنني أدرك ما هو هذا الأسى، فإنني أكرس نفسي وطفلتي لكل ما نستطيع أن نقوم به لنمنع مثل هذه المصيبة أن تصيب الآخرين.

هناك ولد صغير واحد في مدرسة طفلتي، وكنت أذهب غالبًا لأراه. أقول ولد صغير لأن عقله لا يتجاوز ذوي السابعة من العمر. أما جسمه فيبلغ الآن الأربعين السنة تقريبًا، وله وجه شاحب ونظرة يائسة في عينيه. وأبوه رجل مشهور معروف وثري، ولكنه لا يأتي لرؤية ابنه أبدًا. أما أم الولد فمتوفاة. وإذا التمس أحد من أبيه أن يمنحه شيئًا من المال لإجراء نوع جديد من البحث العلمي، ضرب هذا الأب بقبضة يده على النضد الذي أمامه وقال: «لن أعطي فلسًا واحدًا، إن مالي كله منصرف إلى الناس الأسوياء».

أهو لئيم قاس! لا، إنه ليس لئيمًا، لأن قلبه يدمي، واعتزازه بنفسه وفخره محطوم متهدم. إن ابنه هذا معتوه- ابنه! وفي خلال هذه الأعوام شغل هذا الأب بالتفكير حول نفسه وحول ما يفتقده، ولقد خسر البهجة التي قد يصيبها بابنه- أنا لا أعني البهجة التي نشدها بالطبع، بل أعني البهجة المنبعثة من ذلك كله.

وهناك أب آخر- يضاف إلى هذا أنهم ليسوا دائمًا آباء- يرغب من ولده أن يشتغل بما يخص الأبقار. إنني أرى ذلك الصبي أحيانًا، إنه فتى وسيم أنيق. إنه موجود دائمًا في زريبة الأبقار، يعتني بها،

ويفرشها بغية التنظيف، ويحبها. لقد كنت رأيت أباه يومًا ما، وهو رجل قدير لامع، فقال: «إنه ليبدو لي أن ابني إذا استطاع أن يتعلم استعمال جهاز الحلب، فقد يستطيع أن يتعلم شيئًا أفضل».

لقد حدث أن كان المدير هناك ذلك اليوم فقال: «ليس هناك من شيء أفضل بالنسبة له، ألا ترى! إن أحسن شيء في العالم بالنسبة لكل منا، هو ما يمكن أن نقوم به ونؤديه أحسن تأدية؛ لأن ذلك يزودنا بالشعور بأننا مفيدون، وهذه هي السعادة».

ولذا فإن ما أود أن أقوله للآباء هو أمر قد تعلمته خلال السنين، وقد استلزم مني تعلمه مدة طويلة، وأنا لا أزال أتعلمه حتى الآن. عندما يولد طفلك الصغير غير سليم، لا كما كنت تأملين، ولكنه ملتف على نفسه أو مشوه منقوص في جسمه أو عقله أو ربما في كليهما، فتذكري أنه، مع كل ذلك، طفلك أنت. ثم تذكري أيضًا أن للطفل حقًّا في الحياة، مهما كانت تلك الحياة، وأن له حقًّا في السعادة، التي يجب أن توفريها له. كوني فخورة بطفلك واقبليه كما هو ولا تقتفي كلمات ونظرات أولئك الذين لا يعرفون أحسن مما تعرفين... إن لهذا الطفل معنى بالنسبة لك وبالنسبة لكل الأطفال. إنك ستلقين فرحًا وسرورًا لا يمكن لك الآن أن تتصوريه في تأدية مستلزمات حياته له، وفي القيام بها وفي الحياة معه. ارفعي رأسك عاليًا وانهجي سبيلك المرسوم.

إنني أتحدث باعتباري خبيرة.

ومع هذا فليس منا من يعيش في الماضي، فيما إذا كنا لا نزال نحن أنفسنا أحياء، إن الآباء، الذين لا يزالون في مقتبل الحياة، يعانون في حياتهم مرة ثانية الألم المبرح القديم واليأس القاتل، عندما يودع أطفالهم بين أولئك الأطفال الذين لا يستطيعون أن ينموا أبدًا، لا بد وأن يتذرعوا بذريعة من ذرائع الأمل والرجاء. فلقد شفيت أمراض أخرى، ولا تزال البحوث تُجرى على تلك العلل والأمراض التي لا نزال نجهل كيفية معالجتها وشفائها. إن كل العلل والأمراض يجب أن تشفى ويتخلص منها بالطبع، إذ الناس يجب ألا يموتوا بالسرطان أو شلل الأطفال، أو بمرض من أمراض القلب. كما أنهم يجب ألا يكونوا ناقصين عقليًّا فيما إذا أمكن أن يحال دون حدوث ذلك أو يعالج فيشفى. إنه لا يمكن أن يكون هناك انتخاب أو تفاضل في أي من هذه العلل. يجب أن يكافح أولًا، ذلك أن معركة الحياة يجب أن تخاض في كل الميادين والجبهات في نفس الوقت.

ولذا فإنني أقول إننا يجب أن نسعى أيضًا ونناضل من أجل حق أطفالنا في أن يولدوا أصحاء كاملين. يجب ألا يكون هناك أطفال لا يمكن أن ينموا... إن عدد أمثال هؤلاء الأطفال يجب أن يتناقص سنة بعد أخرى إلى أن تزال أسباب النقص العقلي، تلك الأسباب

التي يمكن إزالتها. إن الحاجة في هذا الباب ملحة أكثر مما يدرك جمهور الناس. إن مؤسساتنا الحكومية محتشدة احتشادًا خطيرًا، وما لم يعجل بالبحوث فإن ملايين من الدولارات يجب أن تنفق على إيجاد مؤسسات أخرى أكثر من العدد المتيسر منها الآن. إن العناية بهؤلاء الأطفال يجب أن تصرف لها مصروفاتها اللازمة في أغلب الحالات من الأموال العامة، حتى ولو تضاعفت البيوت الداخلية (Boarding homes) لهذا الغرض. أليس من الأكثر حكمة وأملًا أن تكرس الأموال لإجراء البحوث العلمية التي قد تجعل مثل هذه العناية المكلفة أمرًا غير ضروري؟ دعنا نتذكر أن أكثر من نصف المنقوصين عقليًّا في هذا البلد هم منقوصون عقليًّا بتأثير أسباب غير موروثة، هذه الأسباب يمكن أن تمنع وتزال، فيما إذا عرفنا ماهيتها.

وأكثر من هذا أن العناية الراهنة غير مناسبة، فالمؤسسات الحكومية قادرة على أن تسهم قليلًا جدًّا في التربية التي قد تؤدي بعدد لا بأس به من هؤلاء الأطفال لأن يتحرروا منطلقين إلى الحياة السوية، فيما إذا حوفظت هذه الحياة بالوقاية. إنه ليس من الممكن أن تحقق درجة لا بأس بها من التربية بوساطة هيئة تربوية منهوكة بالمشاغل والعمل فوق الطاقة في مؤسسة محشودة بالأطفال حشدًا أكثر من طاقتها اللازمة، يضاف إلى هذا أن المراكز الإدارية العليا في مؤسسات بعض الولايات لا تزال من قبيل الطعم السياسي،

وهكذا تكون حيوات الأطفال تحت رحمة تعاقب رجال جهلاء على إدارة المؤسسات، أما المؤسسات الخاصة- وخاصة متى كانت مؤسسات جيدة- فهي باهظة النفقات بالنسبة إلى أغلب العائلات.

ومع هذا فإنني أعتقد أن للمؤسسة الخاصة مكانًا لا بد منه في نظامنا الأمريكي، ذلك أن تقدمنا العلمي المرموق إنما هو نتاج أشخاص خواص يعملون في مراكز ممتلكة امتلاكًا خاصًّا... إن الأموال العامة قد نمت قليلًا من المعرفة العلمية ما عدا ما هو خاص بالأهداف والغايات العسكرية، ولذا فأنا أعتقد الآن بأن البحث العلمي في هذا الميدان الذي هو أكثر ضرورة من غيره، أعني دراسة أسباب وشفاء النقص العقلي، يجب- تمشيًا مع التقليد الأمريكي- أن يجري في مؤسسات خاصة صغيرة حيث يتمكن العلماء أن يعملوا ويشتغلوا بحرية. إن مثل هذا البحث العلمي يجب أن يراعى فيه التنسيق حتى لا تضيق الجهود والوقت في الاشتغال بما هو مكرر معاد.

إن شيئًا من هذا بالطبع قد أنجز فعلًا، فلقد أشرت إلى ما قام به قسم البحث في المدرسة التدريبية في «فاينلاند»، نيوجيرسي، من عمل مرموق في هذا الصدد. كما أننا نعلم أن ٥٠ في المائة على الأقل من الأطفال المتخلفين عقليًّا في الولايات المتحدة الأمريكية

الآن يمكن أن يربوا لأن يكونوا أعضاء منتجين في المجتمع. إن التربية وحدها تستطيع أن تخفف من احتشاد مؤسساتنا العامة بهذا النوع من الأطفال... إن الدراسات التي أجريت في هذا الباب ترينا أن هناك تسعة عشر نموذجًا من الأعمال أو المهام التي يمكن أن تؤدى من قبل شاب لا تتعدى عقليته عقلية طفل عمره ست سنوات. إن عشرين في المائة من كل الأعمال في الولايات المتحدة الأمريكية تؤدى من قبل عمال غير ماهرين.

ونحن نعرف أيضًا بعض الأسباب التي تؤدي إلى الإضرار بالمخ سواء أكان ذلك قبل الولادة أم بعدها، ولكننا لا نعرف الكفاية في هذا الباب. إن كل ما يجري الآن لهذه العقول المصابة بأذى والتي هي الأسباب الرئيسة في حدوث النقص العقلي هو شيء بسيط من العلاج الجسماني، ولكن هذا لا يزال في دور التجريب، كما أنه مقصور بدرجة كبرى على حقل محدود، وإن كان مهمًّا، هو حقل الشلل المخي، حيث يكون السبب الظاهر للنقص أو للتشويه العقلي هو قلة تجهيز الدم للمخ. يضاف إلى هذا أن النتائج لا تزال حديثة جدًّا بحيث لا يمكن الاعتماد عليها تمامًا، غير أن النتائج التي توصلت إليها إحدى المؤسسات تبشر بالأمل- على ما تشير إليه التقارير في هذا الباب حيث إن ٣٤ في المائة من أولئك الذين أجريت لهم عمليات جراحية أبدوا تحسنًا عقليًّا أكيدًا، يضاف إلى هذا العدد أن ٥١ في المائة قد تغيروا إلى

ما هو أحسن من قبل من ناحية اليقظة، والضبط العضلي، ومدى الولع، ومن ناحية الشهية للطعام، ومن ناحية التهيج المتزايد.

إنني إنما أذكر هذه كلها من حيث هي أساس للأمل، وذلك عندما يبدأ البحث العلمي حقًّا في استقصاء أسباب وعلاج النقص العقلي على مقياس يمكن أن يقارن بما يجري الآن في الحقول الأخرى من حقول البحث. إن الأمل أساسي في الفعالية والنشاط. إن أولئك الذين عندهم أطفال لا يمكن أن ينموا أبدًا- والأسر التي ليس فيها طفل من هذا النوع قليلة- يجب أن يعملوا بجهد مجدد، ولسوف يعملون بجهد مجدد، عندما يدركون أن أكثر من نصف الأطفال، الذين هم ناقصون عقليًّا الآن، ما كان من الضروري أن يكونوا كذلك، كما أن هؤلاء الآباء سيبذلون جهودًا أكبر من ذي قبل عندما يدركون أن أكثر من نصف الناقصين عقليًّا الآن يستطيعون، بوساطة التربية المناسبة والمحيط الملائم، أن يعيشوا ويعملوا في مجتمع سوي، بدل أن يحيوا خاملين في مؤسسات غير صالحة.

إن الأمل يجتلب الراحة والطمأنينة. إن ما هو كائن في هذا الصدد يجب ألا يستمر كما هو إلى الأبد. أجل، إنه لاهتمام متأخر جدًّا بالأمر من ناحية بعض أطفالنا، غير أن مصيبة هؤلاء الأطفال إذا استطاعت أن تجعل الناس يدركون أن أكثر هذه المأساة هو

حدث غير ضروري، فإن حيوات هؤلاء الأطفال، على ما هي عليه من خيبة، لن تكون خلوًا من المعنى.

وأقولها ثانية: إنني أتحدث باعتباري خبيرة، وما ينبئك مثل خبير...

* * *